

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي: /...../.....

رقم التسجيل: 125073339

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر

تخصص: أدب جزائري

بعنوان

النص والخطاب في الرحلة الجزائرية

الحديثة

رحلات جمعية العلماء المسلمين أنموذجا

إعداد الطالبة:

- سارة روباش

تاريخ المناقشة: 2018/05/03

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة الأساتذة:

- د/ محمد أمين بوضياف أستاذ محاضر "أ" جامعة المسيلة رئيسا

- د/ جميلة روباش أستاذ محاضر "أ" جامعة المسيلة مشرفا ومقررا

- د/ عمر عليوي أستاذ محاضر "أ" جامعة المسيلة مناقشا

السنة الجامعية: 2018/2017م

أدب الرحلة هذا الجنس الأدبي، الذي يسجل فيه الأدباء والرحالة، تفاصيل رحلاتهم بلغة أدبية فيها الكثير من التشويق الفني، والسرد الجميل، فكثير من كتاب العالم استثمروا رحلاتهم إبداعيا ووثقوها فنيا في أعمال أدبية مختلفة، من قصص وروايات ومقالات وغيرها من فنون الكتابة .

كان أدب الرحلة في وقت سابق العين التي يرى بها القارئ العالم، من خلال انطباعات الرحالة والكتاب والأدباء الذين خلدوا رحلاتهم ودونوها.

فالرحلة سلوك إنساني، وسعي دائم لتحقيق غايات معينة تختلف من بيئة لأخرى، ومن مرتحل لآخر لتشبع لديه فضول الاستكشاف مما يجعل منها حكاية يريد من خلالها الرحالة مشاركة الغير بها.

إضافة لاحتوائها على العديد من النواحي التاريخية والجغرافية والاجتماعية والسياسية... التي بدأ الاهتمام بها يتراجع مع الاهتمام بالجوانب الأدبية في الرحلة، وما فرضته الأوضاع في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأدى اختلاف هذه الأوضاع إلى اختلاف أوضاع الشعوب والأفراد، وركزت اهتماماتهم على صورة المجتمع في رؤية الرحالة الذي يحلّ بهذا المجتمع، أو ذلك الوطن، وشرع يكبر هذا الاهتمام ويتسع منذ منتصف القرن العشرين، خصوصا في الكتابات الجزائرية، وتعكس تفاعل الرحالة الجزائري مع ما حوله في العالم، متطلعا متسائلا، واصفا، مستنتجا، معبرا في كل الحالات عن مواقفه وعن شعوره في مختلف أنواع الرحلات التي كتبها.

والإشكال المطروح هو: كيف شكّل النص الرحلي الجزائري وما هي تمثيلات بنية المجتمع؟ وبماذا تميز المستوى الفني من خلال التشكيل السردية؟.

ومن الدراسات التي سبقت نذكر من بينها: (عمر بن قينة) أمام جامعة الجزائر بعنوان (النثر في الرحلة الجزائرية خلال القرن العشرين)، وهو العمل الوحيد الذي يمكننا اعتباره عملا متغلغلا في عمق النص الرحلي الجزائري. كما يمكننا التنويه بعمل سميرة أنساعد (الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري). وعنوان آخر تقدمت به الباحثة



(ياسمينة شرابي) أمام جامعة البويرة بعنوان (الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري) ومن بين الأعمال الجديرة بالذكر عمل (عيسى بخيتي) بعنوان أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق.

وسبب اختياري لهذا الموضوع يتعلق بشقين، ذاتي وموضوعي، أما الذاتي منه فيتمثل في الميل الكبير والانجذاب المغناطيسي الذي ينتابنا نحو هذا اللون الفني بما يزودنا به من مفاجآت ومعارف تاريخية وطرق الحكي والبساطة في اللغة، والتنوع في الشكل وجمال الأسلوب، أما الموضوعي يتمثل في نفض الغبار على هذا الجنس، والتعريف بمدونة الرحلة الجزائرية الحديثة، وإبراز القيمة الكبيرة التي يحتلها نص الرحلة الجزائرية، وإبراز تاريخ الجزائر إبان هذه المرحلة التاريخية، وتعريف العالم العربي بمادة النصوص الأدبية التي تحفل بها الجزائر وإعادة النظر في الأحكام المسبقة التي لازمت الأدب الجزائري الحديث، وبناء على ذلك اخترت عنوان مذكرتي ب: "النص والخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة (1830-1962) رحلات جمعية العلماء المسلمين أمونجا".

ولما كان لكل عمل تصميم وتخطيط فقط فكرت في تصميم خطة أتبعها في بحثي أولا بدأت بمدخل جاء بعنوان "مدخل إلى أدب الرحلات" تناولت فيه مفهوم الرحلة وأنواعها وخصائصها.

أما الفصل الأول فقد تناولت فيه "النص في الرحلات الجزائرية الحديثة"، وقد تعرضت في هذا الفصل إلى النص الرحلي في العصر العثماني، النص الرحلي والصحافة الحركة الإصلاحية وأدب الرحلات، وبنية المجتمع في النص الرحلي.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان: "الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة" وقد تعرضت في هذا الفصل إلى السرد والوصف والبنية الزمنية .

وأما عن منهجنا في البحث فقد كان لجوعنا إلى تهجين المنهج هو الحل الأمثل لمثل هذا الموضوع، فاستفدنا من المنهج التاريخي (السياقي) موضوعيا كون الرحلة

تراوحت لتشمل زمتا معتبرا في العصر الحديث انقسم إلى أجيال مختلفة، مع الاحتكام إلى الزمن الواقعي الممتد، بالإضافة إلى المناهج النسقية باعتبار أننا تعرضنا لقضايا السرد فكان مناسبا أن نستفيد من المنهج النبوي، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي في مواجهة النصوص وتفكيكها من أجل الظفر بمستوياتها السردية.

وقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مصادر ومراجع نذكر منها: "رحالات ورحالون" في النثر العربي الجزائري الحديث لعمر بن قينة، وكتاب عيسى بخيتي "أدب الرحلة الجزائري الحديث مكونات السرد..."

وفي الأخير لا أنسى أن أثني على كل من كانت له يد في هذا البحث من أساتذة، وعلى رأسهم المشرفة الدكتوراه روباش جميلة فمن لطفها وتفضلها أنني أنهيت العمل الذي لم يكن في الوسع أن يضمن الطريق الشاق دون مساعدتها.

وفي الأخير أسأل الله الصواب والرشاد، فإنّ أصبنا فمن الله جل جلاله، وإنّ أخطأنا فمن أنفسنا.

مدخل

أدب الرحلات

1- حول مفهوم الرحلة.

2- خصائص الكتابة الرحلية.

3- تعريف الرحلة.

4- تعريف أدب الرحلة.

5- أنواع الرحلات.

1- حول مفهوم الرحلة:

إن الحديث عن الرحلة يقتضي التفريق بين أمرين أو معنيين:

1-1 التعريف اللغوي:

• الرحلة حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت395هـ): "رحل: الرأء والحاء واللام أصلٌ واحدٌ يدل على مُضي في سَفَر. يقال: رَحَلَ يَرَحُلُ رَحْلَةً (...)، والرَّحْلَةُ: الارتحال (...). وَرَحَلَهُ، إِذْ أَطَعَنَهُ مِنْ مَكَانِهِ"⁽¹⁾، وعند ابن منظور (ت711هـ)، (رَحَلَ الرَّجُلُ؛ إِذَا سَارَ، وَرَحَلَ رَحُولًا، وَقَوْمٌ رَحَلُوا؛ أَي يَرْتَحِلُونَ كَثِيرًا، وَرَجُلٌ رَحَّالٌ: عَالِمٌ بِذَلِكَ وَمَجِيدٌ لَهُ (...))، والترحل والارتحال: الانتقال، والرحلة: اسم للارتحال، وقال بعضهم: الرحلة: الارتحال، والرحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"⁽²⁾. وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي: "ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كترحلوا والاسم: الرحلة والرحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"⁽³⁾.

وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعاني نفسها، وبهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: ﴿لِيَأْتِيَنَّكُمْ قُرَيْشٌ، إِيَّاكُم مِّنَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾. [سورة قريش، الآيتين: 01-02]

إذن، فمعاجم اللغة تُجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر، وبهذا المعنى يكون العديد من المغاربة وغيرهم من البشر قديما، قد أنجزوا رحلات لا تعد

(1) أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السلام محمد هارون، ج2، ط2، (مادة رحل)، دار الفكر، سوريا، 1979، ص497.

(2) ابن منظور: لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، ج3 (مادة رحل)، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة، ص1608.

(3) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص1005.

ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر، إلا أنه ليس كل من ارتحل قد دون رحلته.

إنّ المعنى الأول يتأسس عليه المعنى الثاني:

1-2 التعريف الإصطلاحي:

الرحلة كتابة يحكي فيها الرحّالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه ، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة -كتابتها- يتطلب أن يكون الرحّالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، والرحلة بهذا المعنى أي بما هي كتابة وخطاب حال اشتغال واهتمام الباحثين بها.

ولابد لكل رحلة مكتوبة من سفر حقيقي وفعلي، ولا يمكن تصوّر كتابه رحلية دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية، ك: "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري (ت449هـ)، و"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد(ت426هـ)، و"التوهم" للحارث المحاسبي (ت243هـ). وإن معنى الرحلة كتابة وهو ما يسميه الباحث سعيد يقطين: "خطاب الرحلة"، ويعرفه بأن عملية تليظ لفعل الرحلة.⁽¹⁾

بينما المعنى الأول هو الرحلة ذاتها، ولهذا نجده يتحدث عن الرحلة وخطابها، ويرى أن خطاب الرحلة "يتماشى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية"⁽²⁾، فيبدأ الخطاب من لحظة الخروج وينتهي لحظة العودة.

إن هذا الخطاب إذاً يواكب انتقال الرحّالة في أماكن متعددة ومختلفة، واصفا إياها جغرافياً وعمرانياً واجتماعياً وبشرياً، وذاكرًا ما لقيه من رحلات العلم والأدب وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر كثير من الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية، والرسائل والإجازات والأشعار، وكل ذلك يسوقه الرحّالة في أساليب مختلفة، ممّا يكسب الخطاب الرحلي تعقيداً تطرح معه قضية تجنيسه.

(1) سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص200.

(2) المرجع نفسه، ص200.

2- خصائص الكتابة الرحلية:

تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، تتمثل فيما يلي:

- **هيمنة بنية السفر:** التي تؤطر الأحداث وتنظمها مما سبق الإشارة إليه.
- **الذاتية:** تحضر ذات الرحّالة في رحلته حضوراً بارزاً، وليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكياً لسفر قامت به هذه الذات، وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بألوانها.
- **الحكي بضمير المتكلم مفرداً أو جمعاً:** وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.
- **الواقعية:** الرحّالة الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضاً واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض. وبهذه الخصيصة تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة المبنيتين على الخيال.
- **دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق:** فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحّالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.
- **تعدد المضامين وتداخل الخطابات:** يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية... وتتداخل فيه خطابات مختلفة: الشعر والرسالة والحكاية والوصف والسرد... وهذا ما يجعله جنس الأجناس، أو محصلة الأجناس.

3- تعريف الرحلة:

لاشك أن تعريف الرحلة سيكون صعباً، مثل تعريف أي جنس أدبي آخر، كالشعر والرواية، نظراً لتعدد مضامينها وأساليبها، ولتداخلها مع خطابات أخرى. فالرحلة تشبه فناء بيت تفتح فيه غرف متعددة: الجغرافيا والتاريخ، والتصوف، والأدب، والسيرة

الذاتية، والتراجم، والحكايات، والرسائل، والكرامات، والشعر... وهذا كله يؤدي إلى صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده زخم الخصوصيات والتنويعات في النصوص الرحلية العربية.⁽¹⁾

يقول التعريف: "أدب الرحلات هو نوع أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته، من عمران، وأحداث، وأشخاص، وعادات، وتقاليد، وغيرها".⁽²⁾ والملاحظ على هذا التعريف أنه يخرج من الرحلات كثيراً من الكتابات التي لم يكتبها أدباء، ويكون الجانب الأدبي فيها باهتا إن لم يكن منعدماً، ورغم ذلك تدرج هذه الكتابات ضمن الرحلات.

أما الشبكة الدولية للمعلومات **Internet** فقد أوردت تعريفاً يقول: "إنه النص الذي يحكي فيه المؤلف ما شاهده في بلد آخر".⁽³⁾ إن هذا التعريف فضفاض بحيث يمكن أن يدخل فيه ما ليس من جنس الرحلة كالتحقيق الصحفي **Reportage**. ويعرف إنجيل بطرس الرحلة بقوله: "أدب الرحلات إذن، هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفاً له، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير".⁽⁴⁾

⁽¹⁾ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية النشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص42.

⁽²⁾ إميل يعقوب: سيام حركة، مي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي- إنجليزي- فرنسي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، ص25.

⁽³⁾ Rcit de Voyage, Relation Reportage : www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html

نقلا عن محمد الحاتمي، الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، ط1، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات فريق البحث في التراث السوسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2012، ص30.

⁽⁴⁾ إنجيل بطرس: "الرحلات في الأدب الإنجليزي"، مجلة الهلال، ع7، السنة 83، يوليو، 1975، ص52.

4- تعريف أدب الرحلة:

الرحلة إذن ظاهرة أدبية، تتداخل فيها عدة عناصر أدبية وخارج أدبية، فهي الشكل النصي المفتوح وذلك نتيجة مجموع مكونات ثقافية واجتماعية وسياسية متداخلة، ونسيج متفاعل يشكل نصاً يتموقع في ملتقى علامات شديدة التجذر في حقول تعبيرية شتى، وعبر أنواع متقاربة ومتباعدة تحمل في العمق رابطاً خفياً يوحدتها ويجسد الأثر الشخصي للخبرات الإنسانية، الأمر الذي يعطي لهذا التعدد الأنواعي والبصمات المميزة بعداً مفتوحاً على شرايين وقنوات تتغذى من الأشكال الفنية النثرية ومن التاريخ والجغرافيا والمذكرات والتراجم...

والاسترسال في السير والتعليقات التي تعطي للحكي طابعاً مزدوجاً بين التقرير والانسباب والوصف، مما يمد النص الرحلي برحابة تسع المعرفة بأسئلتها الممتدة حتى راهتنا.

ولعل من أهم خصائص النص الرحلي المغربي هو طغيان النصوص الحجية، الزيارية المدونة، المطبوعة منها والمخطوطة، والتي سادت لفترة طويلة، وكانت حادة في أحكامها وتقييماتها؛ كتبها فقهاء أبقوها نصاً "يتيماً" يشهد على أهم حادث في حياتهم من سير معروف وأحداث ومشاهدات وزيارات وأداء للفرائض، وما يتخلل ذلك من سرود وأوصاف وتضمينات...

كما وجد النص السفاري المغربي- المغربي على وجه الخصوص- خلال القرن الثامن عشر بموازاة ما شهدته المغرب وأفريقيا في تلك الفترة- من كثافة في الرحلات الأوربية.

5- أنواع الرحلات:

5-1 الرحلات الدينية:

يعد الحج الدافع الأساسي لدى المغاربة للقيام برحلات؛ لأنهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز من جهة الغرب فكان شوقهم لأداء الفرائض وزيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعظم من غيرهم، وكانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر، وأطلق على هذا النوع الرحلات الحجازية أو الحجبية، وفيه من التراكم الكيفي والكمي، بحيث يُعدّ الصنف الأول من حيث الكتابة، فكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال، فالحج كان ولا يزال، رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس، وليس علماءهم أو فقهاءهم فقط.

أما النوع الثاني فهي الرحلات الزيارية والصوفية، وهذا النوع يكتسي طابعا دينيا وروحيا، ويتمثل في زيارة العباد والزهاد والوعاظ، ويعتبر أبو بكر الهروي المتوفى سنة (1215/5611م) أشهر الرحالين المختصين في المزارات المتبرك بها، وقد دون تنقلاته تحت عنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات"⁽¹⁾، وهو دليل لزيارة الأضرحة والمقامات المشيدة في البلدان الإسلامية، ولا تخلو كتابته من إفادات جغرافية وتاريخية عن الأقاليم التي مرَّ بها، أما المغاربة فلهم مشاركة بدورهم في مجال السياحة الدينية والدعوة للتربية الروحية في مختلف البلدان العربية والإسلامية، ومنهم من خلف لمريديه ولطلبته طريقته الصوفية.

5-2 الرحلات العلمية:

تعود نشأة الرحلة في طلب العلم إلى بداية انتشار الإسلام، فمنذ "عهد مبكر ارتحل المغاربة إلى المشرق لأهداف تعليمية"⁽²⁾، فالرغبة في طلب العلم، استجابة

(1) الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ط2، منشورات عكاظ، المغرب، 2002، ص39.

(2) إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، إشراف: الدكتور عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2006/2005، ص19.

لدعوة الشارع إلى التعلم، ولعل أبرز رحلة لطلب العلم في القرن الثاني الهجري ما نسبته الربيع بن سليمان إلى شيخه الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (204هـ) ومما رواه عنه قوله: "وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد العجم وألقى الرجال، حتى كتبت وأنا ابن إحدى وعشرين سنة".⁽¹⁾

ومن رحلات الغرب الإسلامي ما "اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي، يمكن أن نلاحظ هذا في رحلات، ابن رشيد، والعبدي، والتجيبى، والبلوي، وابن خلدون، والقصادي..."⁽²⁾، وهذا ما نوّه إليه عبد الرحمان بن خلدون في مقدمته الشهيرة، إذ قال: "والرحلة لا بد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"⁽³⁾ فالهدف من الرحلة هو التزود بالعلم ومقابلة الشيوخ من العلماء، ولقد كانت الرحلات في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى العلماء.

3-5 الرحلات التجارية:

كانت التجارة منذ القديم، أمرا يقتضي القيام بالرحلة والسفر البعيد من أجل تأمين سبل الحياة والكسب، ثم إن الموقع الاستراتيجي للبلاد العربية وكونها مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين القارات، شجع العرب على ممارسة الترحال من خلال ما سمي برحلتى الشتاء والصيف. أما المغاربة فقد قاموا برحلات من أجل التجارة، وهم أولئك الرحالة الذين جابوا البحار والمحيطات، وسافروا عبر المغاور والشعاب ينتقلون وينقلون بضائعهم من بلد إلى آخر، وقد يقضون في متاجرتهم هذه سنين عدّة، وعندما ينتقلون إلى أوطانهم عائدين، يأخذون في سرد الحكايات و الأحاديث في أسلوب شيق

(1) محمد بن إدريس الشافعي: رحلة الشافعي، نشر محي الدين الخطيب، (د.ط)، المطبعة السلفية بالقاهرة، سنة 1350هـ، ص18.

نقلا عن محمد ماكأمات، "أثر الرحالين في التقدم العلمي والحضاري"، مجلة فكر ونقد، ع87، السنة التاسعة، مارس 2007، ص66.

(2) الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ص80.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشّاددي، ط1، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص226.

عما صادفوه أو شاهدوه، ويحكون عن البحر وأهواله وعن أسماكه ومحارده، وعن جزائره وقاطينها وطبائعهم وعاداتهم.

4-5 الرحلات السياحية:

لقد سعى بعض الرحّالة إلى البحث عن الحرية، والاجتياز المكاني، حيث المهم هو السفر لا المكان الذي يرتحل إليه، فالدافع القابع وراء القيام بهذه الرحلة هو التمتع بالحياة والوصول إلى مواطن الجمال في كل مكان، والرغبة في اكتشاف ما لم تره العين، فيقوم الرحّالة بالسفر بمحض إرادته دون دافع خارج عن حدود الذات⁽¹⁾، لذا جاءت بعض الرحلات لارتياح الأماكن ووجوب الآفاق والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز مضمون الحج أو المهام الرسمية ليجول الرحّالة في البلاد التي طالتها يد الإسلام وشاع فيها الأمن والاستقرار في أكثر أنحاءها، يريد أن يرى ويعرف أشياء كثيرة، لذا قد تجتمع عدّة أسباب لرحلة ما، كما هو عند ابن بطوطة الذي زار أصقاعا عديدة بدافع الرغبة التي تفرضها الذات، وحب الإطلاع على الحضارات بثقافاتها المتنوعة، وقد قضى من عمره شطرا كبيرا في الترحال والسفر، فكانت رحلته حجازية سياحية في مضامينها.

5-5 الرحلات الرسمية:

يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية، وهي خاصة بدوافع عديدة منها: "تفقد أمر الرعية، أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، أو الإتيان بأخبارها، فقد تكون في إطار التجسس أو الاستطلاع"⁽²⁾. عدت السفارة الشكل الرسمي للرحلات، حيث يوكل بها الرحّالة من قبل الحاكم، وهي الرسالة التي يتنافس على أدائها من يتكفون بها، إذا كانت تقترن في نفوسهم برفعة الدولة الإسلامية وعلوّ شأنها، فالسفير ممثل لدولته وعنوان لرقبها، وكانت

(1) ينظر: حسين نصار، أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1991، ص5.

(2) سميرة أنساع: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الشريف مربيعة جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 20.

السفارة لا تتقطع بين الدول العربية وما جاورها من الدول لأغراض ومقاصد متنوعة، إما لتصفية الأمور السياسية أو لمقصد الصلح، وقد تكون نتاج علاقات سياسية.⁽¹⁾ فالرحلات التي أرسلت لتأدية مهمة رسمية أو سفارة، بين الدول المغربية والدول التي ترتبط معها بعلاقات وثيقة، وهي رحلة خاصة مموّلة من قبل السلّطة المركزيّة في الدولة، وقد خطّط لها مسبقا ولها أهداف معلومة، وأغراض محددة منذ البداية.

وقد جاب الرحالة السفراء مشارق الأرض ومغاربها، وعند عودتهم تجد كتابتهم مليئة بأوصاف مثيرة عن ترتيبات الدول وأنظمتها، ومراسم استقبالها السفراء، والوفود الرسمية الوافدة، من أبهة ووجاهة وتقاليد خاصة تبرز قوتها ومكانتها، فضلا عن أوصافهم للمسالك والطرق وعادات الناس.

إنّ، فالرحلات السفارية تتعلق بتبادل السفارات بين الدول الإسلامية أو بينهم وبين الدول الأجنبية، وغالبا ما يسكت الرحالون عن الهدف الأساسي من سفارتهم، ويكتفون بالإشارة إلى الرغبة في استمرار السلام والعلاقات الحسنة مع البلد المزور وعقد الصفقات التجارية، وتحدثت كتب التاريخ عن العديد من السفراء ودورهم المتميز في الدفاع عن بلدانهم وتحديد مواقفهم من حضارة الآخر، ونسوق على سبيل المثال من الغرب الإسلامي والمغرب رحلة السفير عبد الله بن العربي المعافري صحبة ابنه أبي بكر اللذين توجهوا إلى الخليفة العباسي ببغداد بعد موقعة الزلاقة، فخلف رحلته المعروفة "بقانون التأويل"، والسفير الثاني يحيى بن الحكم الغزال إلى بلاد النورماند والقسطنطينية في منتصف القرن التاسع الميلادي، والسفير الثالث هو محمد بن عثمان المكناسي، وخلف ثلاث رحلات هي: (الإكسير في فكاك الأسير) والثانية تحمل عنوان (البدر السافر) والثالثة سماها: (إحراز المعلى والرقيب) وسنتطرق لهم أكثر تفصيلا لاحقا.

(1) ينظر، نوال الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص40.

الفصل الأول

النص في الرحلات الجزائرية الحديثة

1- النص الرحلي في العصر العثماني.

2- النص الرحلي والصحافة.

3- الحركة الإصلاحية وأدب الرحلات.

4- صورة المجتمع.

5- بنية المجتمع في النص الرحلي.

1- النص الرحلي في العصر العثماني:

ازدهر أدب الرحلة على عهد الأتراك ازدهارا لم يسبق للجزائر أن عرفته في العصور التي مضت، إذا لم نسجل في تاريخ الجزائر حجما لنصوص الرحلة مثلما سجلناه في هذا العصر، ولعل نصوص هذه الفترة تفوق مجموع نصوص العصور السالفة قاطبة، حتى في عهود كانت فيها الثقافة والعلم في مراتب عالية مثل العهد الموحد والحمادي والزياني مثلا، حيث شهدت مظاهر الثقافة تميزا وتفوقا.

وما يدعو للتساؤل هو كون هذا الإنتاج الرحلي لا يعكس مستوى الجزائر الثقافي في هذه الفترة، لأن الأتراك أنفسهم لم يهتموا بشأن الثقافة والعلم في الجزائر، لأسباب مختلفة منها الصراع في مجابهة الأعداء "لأن جهود الأتراك كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد القراصنة والمعتدين على البلاد، فلم يعطوا الأمر الثقافة ما يستحقه من عناية واهتمام ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري"⁽¹⁾.

الذي أسهم في اكتساح الطبقات العامة للمجتمع وإضعاف قدراتهم المعرفية التي تشجع على العلم والمعرفة والتحفيز على ذلك " فكثرت المحن وتألمت الجزائر فالأدب هو الآخر أخذ الضعف يدب في مفاصله، وقل رجاله، ولم يبق من الحركة الفكرية التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة إلا ذلك البصيص النافذ من بيوتات عرفت بالعلم من قديم"⁽²⁾ وهو الذي حافظ على بعض القيم الحضارية للمجتمع الجزائري، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإنه لم يكن للجزائريين طمع في إمداد الدولة لهم بوسائل تعليمية، وتجهيزات وبرامج لأجل ذلك، فبد السلطة الحاكمة كانت مغולה على الثقافة والتعليم، "ومن ثم كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان

(1) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص 218.

(2) المرجع نفسه، ص 225.

سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل إلى معرفة وفهم أسرار الدين والقرآن⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى لم تترك السلطة الحاكمة أمر الناس في تولي أمورهم العلمية وإنما قامت بتأسيس دور ومراكز للتعليم، ولم يكن للأتراك نية بريئة تجاه هذا المظهر، "حيث أن السياسة العثمانية عملت على "تأسيس كثير من الكتاتيب والمدارس والجوامع، ودور الكتب في مختلف المدن، وقد كان للعثمانيين هدف واضح من وراء ذلك يتمثل في العمل على نشر وشيوع المذهب الحنفي بين أهل المغرب، ومحاولة إضعاف المذهب المالكي، الذي كان يمثل المذهب الرسمي لأبناء المغرب، كما كان متمكنا من نفوسهم بينما كان المذهب الحنفي يعتبر دخيلا على البلاد، ويعد مذهبا للحاكمين"⁽²⁾.

فقد أدرك الأتراك مدى المذهب المالكي في تمتين روابط الوحدة الجزائرية والمغربية عامة، فكانوا يخططون لقلب الأوضاع من أجل السيطرة الكلية على الأهالي وضمهم تحت نفوذها، وليس لهم من ذلك أي هدف ثقافي أو علمي وإنما مراعاة لمصالحهم الخاصة.

وفي خضم هذه المعارك عاشت الجزائر أفسى مراحلها عسرا فقد انتشرت العلل الكثيرة والأمراض الجمة، حيث لم تتوقف عنها الحروب، ولم تهدأ عنها الدسائس والمؤامرات فأطبق عليها الجهل إذا لم تشيد بها مراكز علمية، ولا معاهد تكوينية، فانكسر الأدب وأصبح الشعر ضعيفا تعليميا في غالبه، والنثر ثقيلًا متكلفًا بسجعه.

وإذا كان هذا حال الأدب في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الثقافي، فإنه قد تحقق في الآن نفسه تدوين كثير من الرحلات حيث "أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في

(1) أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1982، ص 159.

(2) عبد الرحمان عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، منشورات المجلة التاريخية التونسية، ط 1، 1982، ص 23.

كتابة الرحلات لاسيما خلال القرن الثاني عشر⁽¹⁾، وبذلك يكون الحديث الذي عقده حول ضعف الحالة الثقافية والعلمية في حياة الحكم العثماني للجزائر، لا نراه يتوافق مع ما كان للجزائر من نشاطه رحلي وإسهامات في أدب الرحلة الذي يعد إسهاما ثقافيا بالدرجة الأولى، فما تفسير هذه الظاهرة المتناقضة؟

فنقول إن من أهم عوامل انتشار تدوين الرحلات في مثل هذه الظروف يتمثل في الآتي:

- لقد كانت الرحلة عبارة عن تقليد سار عليه مثقفو المغرب العربي، حيث توارثته الأجيال، جيل عن جيل فأصبح يمثل حلقة من حلقات الثقافة في ذلك العصر، ولعل ما يبرر ذلك هو اعتماد كل رحالة في تدوين رحلته على رحلات سابقه مع الرحالين وتقليدهم فيما دوتوا، ومن ذلك مثلا ما نجده في رحلة أبي رأس الناصري في قوله: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب المرزوقي، ورحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي..."⁽²⁾

- كما اعتمد الورثاني أيضا على مجموعة هامة من الرحالين كالبكري والمقريري والعبدي والدرعي، والعياشي، كما نجده في قوله: ".. مما فتح به عليّ أو منقولا من الكتب سيما وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، هذا وإني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ"⁽³⁾

_الرحلة لا تعبر عن قوة الثقافة أو ضعفها بالكم وإنما انطلاقا من مضمونها الذي تقاس به مستويات الكتابة التي تعبر به عن مستواها الفكري والأدبي، أو من خلال الموازنة بين المرجيات المحمولة وثقافة الآخر.

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص381.

(2) أبو راس الناصري: فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح، محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص91.

(3) الحسين بن محمد الورثاني: نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، نشر محمد ابن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية،

- إن نسبة الرحالين الجزائريين لوطنهم الأصلي لا يدلّ على أن هؤلاء الرحّالين عاشوا طوال حياتهم عاكفين فيها، وإنما قضى هؤلاء غالب عمرهم راحلين عن وطنهم الأصلي وتفرّقوا في البلدان المجاورة أو البعيدة، ومن ثم حصل لهم تنوع ثقافي وتحصيل علمي كما أن أغلبهم أخذ تكوينه من بلدان مجاورة ومنهم من أتم علمه بتلك الديار، ووسّع بها معارفه ومداركه، أما الذين أطلّوا المكوث في الجزائر فأكثرهم كان يعيش الحرمان والفاقة من عدم اكتراث السلطات به، مثل ما حدث مع أبي رأس الناصري المعسكري.

- تعدّ الرحلة وعاء لعصرها، فهي تعبّر عن أدب ذلك العصر وخصوصياته، لذلك نجد الرحلة في المرحلة العثمانية انتابها الضعف من الجانب الأدبي، فكثرة نصوصها المدونة لا يشي بقوتها الأدبية وإنما فائدتها الجمّة كانت من حيث حضورها التاريخي والحضاري، فهي تعدّ وثيقة ومصدرا تاريخيا بالدرجة الأولى ثم من درجة أقلّ مصدرا من مصادر الأدب.

- كما أن معظم الرحّالين متصوّفة من أهل الزوايا ليس لهم احتكاك ولا مصلحة بالسلطة كالورتلاني وابن حمادوش وغيرهما، وهم لا يمثلون الاتجاه العثماني ولا توجيهاته.

وقد كانت الرحلة الجزائرية في العهد التركي ذات نمطين: شعري ونثري، فمن الرحّالين من استهوته الكتابة حول تجربته الرحلية نثرا فعبر عن ذلك في سرد وقائع تلك الرحلة، ومنهم من استهوته كتابتها شعرا أو نظما، فنظم قصيدة ذكر فيها مراحل سفره، وأشواقه وحنينه، وهي في جملتها كانت رحلات حجازية كرحلات كل من (المنداسي، المجاجي، ابن مسايب، المصعبي، أمحمد بن يوسف أطفيش....)

أما الرحلات النثرية فقد تنوّعت بين العلمية والحجازية ودوافع شتى، وفي هذه العجالة سوف نتعرض للرحلات النثرية دون المنظومة بإطالة بسيطة حتى يتسنى لنا الحصول على صورة تقريبية عن أدب الرحلة الجزائري في هذا العهد، والتي تميزت فيه، إضافة إلى الدافعين الأساسيين الذين تماشوا مع طول مسيرة الرحلة الجزائرية وأقصد بهما

-الدافع العلمي -الدافع الديني(الحج) _ ودوافع أخرى في هذه الفترة كالدافع الاستكشافي والدافع التقريري.

- الرحلات الحجازية:

تصدر الرحلات الحجازية قائمة الرحلات المختلفة، إذا لم يتخلل الرحالين الجزائريين الضعف طيلة مكثهم تحت لواء الإسلام إلى يومنا هذا، فيما يتعلق بالسفر لأداء فريضة الحج والشوق للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ومما يلاحظ على الرحلة الجزائرية في هذه الفترة أنها تميزت بكثرة الإنتاج وتنوع الطبوع، ومن ذلك الرحلات النثرية التي تحدّد مسار الرحلة، والمدن التي اجتازها الرّحّالون والعلماء الذين لقوهم ومختلف ما يجده الرحالون من مظاهر وانطباعات، وإلى جانب الطابع النثري امتازت الرحلة الجزائرية بكثرة المنظومات التي تجد فيها كثيرا من الأشواق والحنين والحب للرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك فقد كانوا يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية أرض الحجاز والتبرّك بترابها وهوائها، فمنهم من نظم فيها شعراً، ومنهم من أسعفه عنها نثراً، ولكل منهم غاية ومقصد حسب ما تملّيه عليه عواطفه، وميله في التعبير.

وفي هذا المقام سوف نعرض لبعض الرحلات النثرية لأهميتها وندع الحديث عن المنظومة، حتى لا نستغرق في الحديث ويطول بنا الطريق، ونتيه في مسالك متشعبة، تتسع خلالها رقعة البحث.

أمثلة:

- الرحلات الحجازية:

1- رحلة المقرري

2- رحلة ابن عمار

3- رحلة الورثلاني

- الرحلات العلمية:

1- رحلة ابن حمادوش الجزائري

2- رحلة أبي رأس الناصري

- الرحلات الاستكشافية (التجسسية):

1- رحلة ابن الدين الأغواطي

- الرحلات التقريرية:

1- رحلة أبو العباس أحمد بن هطال

2- النص الرحلي والصحافة:

احتضنت الصحافة أبان الحقبة الاستعمارية جميع أنماط ما يستدعي الكتابة والتواصل، وهو القدر المحتوم لكل النماذج الثقافية والإخبارية، في الوطن كله جراء الواقع المر والمسدود، فكان اللجوء حتميا للصحف والجرائد التي احتضنت الأفكار والأخبار والدعاية والأدب والسياسة، والمقاومة والإصلاح والطرقية، فقد كانت الصحافة حلبة صراع كبيرة عرفتها الساحة الجزائرية بداية من أول عهد لها.

ولما كانت كل الأحداث تصب مكنوناتها في إناء الصحف، شاركت الرحلة منذ ظهور أول جريدة عربية في الجزائر، ونقصد بها "المبشر"، هذه الجريدة الرسمية التي نشرت عبرها أول رحلة في تاريخ الصحافة الجزائرية سنة 1852، لصاحبها سليمان بن صيام، المعروفة بـ "الرحلة الصيامية"، ثم أعقبها رحلات ليست بالقليلة كما ولا بالناقصة فنا. واللافت أن معظم الجرائد تبنت نصوصا رحلية، دعت إليها الحاجة في الغالب خدمة لأغراضها الدعائية ورغبة في نشر الوعي والتعرف على مستويات المجتمع وهمومه وغربته.

والمعنى في هذه الصحف، يجد أن الرحلات لم تكن سوى بوق دعوي لفكرة تيار من التيارات التي كانت قائمة في الجزائر أبان تلك الفترة، حيث إن كل جريدة إلا وكانت تسعى من أجل بث دعوتها التي تتبناها، عبر الرحلات التي كانت ملازمة لسيرورة نشاطها الدعوي، سواء تعلق ذلك بالإصلاحيين أو الطرقيين أو الوطنيين، وحتى المماليكين لفرنسا وغيرها من التوجهات، في حين أن هذا الغطاء الإيديولوجي، لا يحجب الرحلات

العامة التي ليست لها مصلحة من مصالح هذه الخلفيات، بل كانت السياحة والدعوة إلى التجوال أو سرد بعض تجارب الحج أو السفر إلى أوربا إلى تغطيات أحداث أخرى. وبهذا التلميح نكون قد مهدنا للقول أن حصر الرحلات جميعها في هذه الفترة الممتدة من سنة (1847م زمن صدور أول جريدة، إلى سنة 1962م - تاريخ الاستقلال) والذي عرفت فيه إنشاء أكثر من مائة جريدة وصحيفة.

3- الحركة الإصلاحية وأدب الرحلات:

يتبادر للذهن من أول وهلة أن الحركة الإصلاحية في الجزائر هي حركة دينية، وبالتالي كل من يملك اعتماد هذه الجمعية فهو رجل دين بامتياز، وهذا خطأ شائع، لأن أعضاء ومناضلي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لم يكونوا كلهم رجال دين وإنما كانوا كلهم متدينين، ورجل الدين في هذه الجمعية هو رجل الدعوة والإمامة في المساجد، والوعظ والإرشاد، بينما كانت هناك أصناف مختلفة وفئات متشعبة يندرج البعض منهم في العمل الصحافي والآخر في التعليم الحر، والبعض الآخر في الأعمال الحرة وغير ذلك.

لذلك نميز في هذا المستوى طائفة علماء الذين كان لهم إسهام في أدب الرحلة، وأبرزهم عبد الحميد ابن باديس وعبد اللطيف القنطري، والمولود بن محمد الأزهري، ومحمد خير الدين، ومبارك الملي والميلاني، وعبد الحفيظ الجنان، والسعيد الزموشي، والزرغداني وباعزيز بن عمر، مصطفى بن حلوش، وسعيد البيباني، وبالقاسم بن أرواق، والصادق حماني، وأحمد حماني.

وقد تميزت رحلات هؤلاء داخليا بمتابعة سير أعمال الجمعية وتفقد شعبها المنتشرة عبر الوطن، وقليل منها ما كانت تخرج عن الوطن مثل رحلات ابن باديس إلى تونس وباريس، ورحلة محمد مساس الإبراهيمي (رحلة الحج) أو رحلة محمد خير الدين إلى المغرب. أو مبارك ألميلي إلى "فيشي" (فرنسا).

4- صورة المجتمع:

4-1 صور المكان/ الجغرافيا والعمران:

يشكل المكان أهم مقومات الحياة بالنسبة للإنسان فهو مجال سيره، وسبيل عيشه ومحط سكناه، وبؤرة معاشه، ومستودع رزقه وأسراره، "فالمكان يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش وللوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة للتنشئة المخيلة وتدمج كلية الحياة في صورة مكانية"⁽¹⁾ ويعد تعامل الإنسان مع المكان تعاملًا حتميًا وضروريًا، فالمكان مصدر رزقه، ومأوى سكناه، وفضاء تخيله، ورمزية وجوده واستقرار تاريخه، ولهذا فالإنسان يتفاعل من المكان جمالياً وفعلياً.

وإذا كانت الأعمال الأدبية التخيلية تركز على المكان كبؤر لشخصياتها، فلا تتفك عن ذلك فإنها في جنس الرحلة تعزز روابط الوثاقاة بينهما، وذلك من باب أولى لأن الرحالة مكلف بتبئير الأمكنة التي يجعل سبلها مطية لاقتفاء كل أثر وسعيا وراء كل مطلب "لأن الرحلة معاناة، والسفر مشاركة للمكان في التحول، واستبدال منظر بمنظر، وموقع بموقع، ومنزل بمنزل، وأهل بأهل، وكلما تجدد الإطار تجددت معه جملة الأحاسيس التي تباشرنا ونباشرها، نتخللنا ونتخللها، فنكتسب منها رهبتها وجلالها، أو وحشتها وتوجسها، أو لطفها وجمالها"⁽²⁾.

فالمكان إذن هو الإطار الذي تتجسد فيه كل أحداث الإنسان، والأرضية التي تتفاعل فيها الشخص لثأدية مهامها المكلفة بها سواء كان ذلك واقعيًا أو فنيًا، فليس المكان حيز الفعل وإطاره، بل هو التفاعل الدينامي الذي يبعثر المرجع ويستفز الذاكرة ويحرك الوجدان. والمكان هو القناة لعدة سبل التي تعرفنا بهوية وانتماء كل فصيل عند الحديث

(1) ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986، ص395-

396.

(2) حبيب مونسى: فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص18.

عنه أو وصفه فوصف المكان - غالبا يدل على أصحابه، ويكشف عن بيئة هذه الشخصيات ومظهرها العقلي والنفسي والاجتماعي، ويحمل خصوصية قومية".⁽¹⁾

وإذا كانت الرحلة الجزائرية الحديثة في جولاتها الداخلية تتطلع إلى مد جسور التآلف وربط شبكة الأخوة وتتقاطع هموم أوضاعها، فهي في الآن نفسه محطات مكانية تستوقف الذات وتمدها بمعطيات المكان الماضي والحاضر، وتتأمل المستقبل.

كما أنها تؤرخ للحظة التي تتبعث منها كينونة السرد ألبلي بأوجاع الأمة التي كانت تعاني مرضها المزمن. لقد وشمّت في المكان تفاصيل الذات المخضبة بدماء جراحها، ورجاء الطبيعة بأفاقها وفضاءاتها وتأملاتها، وسطرت على الواقع أبلغ الذكريات.

4-2- جغرافية المكان وفضاء المدينة:

• الطابع الجغرافي:

يشكل الجمال الطبيعي للجزائر تميزا بتنوع بيئاته واختلاف مناطقه، وتعدد ضروبه، نتيجة التنوع في تضاريس المكان الذي فرضته شساعة مساحته التي تغطي جزءا هاما من قارة إفريقيا. ويعد تنوع مناخها وتضاريسها، فاعلا أساسيا في تنوع البيئة وما نتج عنها من تنوع المعطى الطبيعي الذي اختلفت فيه الجهات الأربع من البلاد (الشمال والجنوب والشرق والغرب)، ولا يتحقق لזائر الجنوب ما يتحقق لזائر الشرق أو الغرب، كما لا يتحقق لזائر الشرق ما يتحقق للشمال والجنوب، وهكذا..

ومما نستشفه من خصوصية المناطق التي تقاطعت فيها الرحلات أننا نستوفي حتى الجمال من كل منطقة دون أن نجد أوجه الشبه الكبيرة بين المناطق. وقد تحدثت رحلات عن جمال الطبيعة من خلال المدن النموذجية لكل جهة، وهي المدن التي باتت إيقونات في سجل التاريخ، بماضيها العريق وحاضرها المشرق. فبالغرب الجزائري لا يختلف

(1) غاستون باشلارد: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

الرحالون في كون تلمسان مدينة "معتدلة الطقس جميلة المنظر آهلة بالسكان من أبنائها المسلمين⁽¹⁾".

وباستثناء طابعها العمراني في هندسته، فإن عاملها الجغرافي أكسبها مميزات طبيعية خاصة، فتشكلت فيها الأشجار ذات زينة وجمال، بدت في المدينة راقلة، في وسط خصب ومناخ فريد، تجلى ذلك في حديث أحد الرحالين عند قوله: "فوجدناها بلدة بهيجة المنظر لما بها من الأشجار والأنهار وجميل الآثار"⁽²⁾ وتضاف إلى طبيعتها مكملات الخصب، وعنصر الحياة، الذي يعد سرا من أسرارها، فالماء هو ضابط الطبيعة في تلمسان، الذي لا تتحدث الرحلات عن ينابيعها، بل عن شلالاتها التي تثير الإعجاب، كشلالات (اللوريط) التي كان ماؤها يتدفق متاعا للناظرين وتقريجا عن نفوسهم، وباتت مقصد الرحالين الذين نوهوا بها كثيرا كقول إسماعيل مامي: "وهو موضع بين الجبال فيه من المياه الدافقة ما يغنيك عن الماء العذب المعين"⁽³⁾ وقول عبد الحفيظ الهاشمي خلال زيارته: "انتهينا إلى اللوريط الواقع في سفح الجبل إلى أسفله في شكل عمود فضي وأطيّار تصدح ونسيم عليل"⁽⁴⁾

وتتميز مدن الغرب الجزائري بطابع الفلاحة كمستغانم "بلدة ذات تجارة واسعة وفلاحة عريضة"⁽⁵⁾ "ومدينة معسكر جميلة المنظر الطبيعي طيبة المناخ معتدلة الطقس"⁽⁶⁾ والمثال نفسه على منطقة سيدي بلعباس التي تضم "البساتين الجميلة والرياض اللطيفة

(1) حديث متجول النجاح.. تلمسان الجميلة جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3853، يوم السبت 30 محرم 1370 هـ، الموافق لـ 11 نوفمبر 1950م.

(2) المولودين محمد الزهري: رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، جريدة الصديق، ع38، 1931/07/18.

(3) إسماعيل مامي: جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، جريدة النجاح، ع143، 1924/01/25.

(4) عبد الحفيظ الهاشمي: رحلة إلى المغرب والأندلس، جريدة النجاح، ع1370، 1932/10/19.

(5) جولة: جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، جريدة النجاح العدد، 137.

(6) حديث متجول: جريدة النجاح، السنة 30، ع3860، يوم الأربعاء، 1950/12/06.

لسكنى ملوك الفلاحة ورجال الحزم والعمل⁽¹⁾ مما يؤهلها لتكون في مقدمة المدن المنتجة للموارد الفلاحية ونشاطاتها المختلفة.

أما الشرق الجزائري، فتميزت جغرافية مكانه بتضاريس خاصة، إذ غدت الكثير من المساحات الأرضية تشكيلا طبيعيا مميزا، خاصة منها المنطقة الشمالية التي غلب عليها التنوع في التضاريس والمساحات الخضراء التي تغطي جبالها وسهولها، وهي تتوزع بين أشجار مثمرة وغير مثمرة ذات أشكال وألوان، جعلها تغني الناظر ومادة خصبة للاستمتاع والإلهام مثلما نجده في قول سليمان الصيد حين كان يقطع المسافة بين سكيكدة وعنابة "كانت الطريق بينهما جميلة ملهمة يجد فيها الشعر من لم يشعر، فترى أشجار برتقال وزيتون وكروم وترى الأرض على مد البصر خضراء بللها الندى مختلفة الأنوار فيحس الإنسان كأنه في روضة غناء منظر ساحر وجمال خلاب وهواء عليل⁽²⁾" وهذا فيه ما يغني عما في الطبيعة من تفصيل.

إن هذه التضاريس التي ميزت المنطقة الشرقية من الجزائر، لم يقتصر جانبها على الطبيعة البرية، بل أعطى شكلها الهندسي الغريب بعدا آخر عندما تأسست على ظهره المميز مدينة عمرانية بحجم قسنطينة التي تشكل غرابة بين مدن الجزائر بل حتى المدن العالمية فهي " مبنية على حجرتين عظيمتين تحفها أودية من كل ناحية يزيدا جمالا تلك الأشجار الصنوبرية الباسقة التي يطيب بها هوائها الطلق المنعش للأرواح والأبدان الفاعل في الأفئدة فعل الصهباء في العقول"⁽³⁾ فما كان لمتخيل أن يتوقع أن مدينة بهذه الروعة تقع على هذه المساحة الوعرة، فتعود ميسرة وقابلة للتشويق، وما زادها روعة أن الماء يتخللها وديانا، والأشجار الباسقة تتموضع في شكل طبيعي فني يزيد من جمال

(1) مامي إسماعيل: على جناح السفر، جريدة النجاح، سنة 30، العدد 592، الأربعاء 06/05/1950م

(2) سليمان الصيد: رحلة مدرسية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، العدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953)

(3) محمد العلمي بالجزائر: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 770، الجمعة 2 أوت 1929 – الموافق لـ 25 صفر 1348هـ.

وروعة المدينة، ولكم يتخيل الإنسان هذه المدينة ويتساءل عن عوامل إنشائها، فهي لا تتشبه إلا بما شبهها الرحال عمر بن قذور بقوله: "أما المدينة فكانت في الأعلى على تخت رفيع محفولة بخضون طبيعية من المهاوي العميقة وقواعد موقعها الحجرية العتيقة"⁽¹⁾ أما بالنسبة لمنطقة سطيف، فهي تحتل موقعا ومناخا مميزين كما يؤكد الورتلاني في قوله "فقد بلغا في الحسن غايتهما، وكادت أن تمتاز على كامل مدن القطر، في نقاوة الهواء وعذوبة المياه مع ما يحيطها من الحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال، والأزهار المختلفة الألوان... والثروة الطائلة بأراضيها الخصبة"⁽²⁾.

وأما بوسط البلاد فهي نحفل بأرض خصبة، ومناظر طبيعية خلابة، ومحيط مناخي جيد، خاصة منها نواحي متيجة التي تعد "مستقر الخدمة ومركز المتفlichen والبلاد المتقدمة كلها ذات باسيتين زاهرة وأجنحة قطوفها دائية وغلل متنوعة أما أرضها فخير أرض تزرع"⁽³⁾ وهذا يفيد أن المكان له طقوس فلاحية خاصة، تدل على التنوع في ألوانه التي يزهو بها البساط لما تصير في مستوى الإنتاج، ودليل على الخصب الذي تتمتع به المنطقة، الكفيل بضمان معاش أهلها.

وتعد مدينة مليانة واحدة من مجموع المنطقة يقول عنها الرحالة مامي: "طابق اسمها مسماها فهي ملآنة من كل شئ فلا تشكو جوعا ولا عطشا في حياتها المادية والأدبية"⁽⁴⁾ إضافة إلى ميزة أراضيها الخصبة، تتميز بموقعها الذي ركنت إليه جميع مكونات الحياة ومستلزماتها من "أشجارها المتكافئة ومياها الدافئة وهوائها الطلق..."⁽⁵⁾

(1) عمر بن قذور: سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق العدد 38 الجمعة 28 ذي الحجة 1331 الموافق 1973/11/28.

(2) الفضيل الورتلاني: رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، الجزء السابع المجلد العاشر، (غرة ربيع الأول 1353هـ/ جوان 1934).

(3) إسماعيل مامي: جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 120.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

أما الناحية الجنوبية من الجزائر فهي تتربع على أكثر من ثلثي عرش المساحة الكلية للجزائر، مما يجعلها هي الأخرى تختلف من منطقة إلى أخرى وتأخذ كل منطقة طابعها الصحراوي الخاص في منتوجاتها الطبيعية وفي ثروتها المعدنية وفي نوعية تربتها وتميز طاقاتها ومواردها المائية، وتشكيل تضاريسها وتميز مناخاتها "وهي في العموم بلاد واسعة الأرجاء حسنة الطقس حلوة الماء كثيرة النخيل والمياه كثيرة الرمال"⁽¹⁾ كما أنها "فيافي خالية، ورمال ذهبية كثيرة دقيقة، ونخل باسق جميل.. طقسها متباين ومياهها مختلفة"⁽²⁾ وهي مناطق تتراوح بين كونها من جهة "واسعة الأرجاء حسنة الطقس حلوة الماء كثيرة النخيل والمياه، كثيرة الرمال عامرة بالسكان"⁽³⁾ ومن جهة أخرى "تبدو أنها أطراف مترامية وفيافي خالية ورمال دقيقة.. وطبيعة قاسية ومياه في أعماق آبار نائية، ونخيل يحتاج إلى أعمال شاقة متواصلة"⁽⁴⁾ وإذا كان هذا الرصيد من الأخبار عن صفة الصحراء، فإن الرحالين لم يذكروا إلا شطرا بسيطا من مساحتها المترامية، وخصصوا حديثهم عن ناحية من النواحي الجنوبية الشرقية، دون باقي المناطق الأخرى. ومن أهم المدن بهذه المنطقة المتحدث عنها مدينة بسكرة التي تمثلت بخصوصية كونها رائدة إنتاج التمور، فطبيعتها ساحة من النخيل لذلك تجد "تخيلها باسقة وأثمارها مختلفة"⁽⁵⁾.

والحديث عن طبيعة بسكرة وما تتفرد به، نحيل فيه الكلام على قول أحد الرحالين: "كثيرة النخل، ذو أنواع غريبة منها ابنة الفقيه وابنة المراق وغيرهما وبها أنواع البقول اللذيذة، وبأعلى البلدة محطة القطار الحديدي وبداخلها بساتين عجيبة الشكل والنظام

(1) حديث متجول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال...، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3895 يوم السبت 7 رجب 1370 الموافق لـ 14 أبريل 1951.

(2) المصدر نفسه، العدد 3899 يوم السبت 21 رجب 1370 الموافق لـ 28 أبريل 1951.

(3) المصدر نفسه، العدد 3895.

(4) المصدر نفسه، العدد 3899.

(5) إسماعيل مامي: جولة نائبا بالوطن القبائلي، جريدة النجاح، العدد 181، الجمعة 7 نوفمبر 1924. الموافق لـ 8 ربيع الثاني 1343هـ.

وأحسنها الجنان الكبير تشقه سواقي جارية وقنوات معتدلة به أشجار عالية مختلفة الأشكال والأزهار، وبه الظباء يمشي الهوينى للتفحس والتخلع والتسلية، ذوات الأعين النجل والثنايا البلج الفتاكة، ولا تعجب إذا فتكت بك الألاحظ لهن فروع ومزينات متونهن وعيون دعج وأعجاز مرتفعات وخصور ناحلات⁽¹⁾.

3-4 الجانب الحضاري في المدن:

إن أهم ما يميز المدينة الجزائرية أن بعضها تنوعت فيه أنساق العمران المختلفة بفعل التنوع الحضاري الذي تعاقب عليه منذ زمن يتعدى التاريخ الإسلامي للبلاد. ولقد احتفظت كل حضارة بلمسة من لمسات طابعها الفني، بالإضافة إلى البعد الاستراتيجي لاختيار مواقع المدن، أعطى كل هذا مسحة جمالية للمدينة الجزائرية في الغالب وتجدر الإشارة إلى أن أهم العوالم الحضارية التي ميزتها في تشكيل طابع المدينة تجتمع جميعها في الآثار الرومانية القديمة، والتراث الإسلامي -خاصة منه الأندلسي والعثماني -والطابع الأوربي، هذا الأخير قد شكل النمط الغالب الذي طغى على الكثير من المدن، كونها مدن حديثة أنشأها المستعمر لصالحه.

لقد احتفظت الرحلات الجزائرية الداخلية بذكرها لهذا الجانب، فتعرضت لحسن الكثير من المدن في بنائها العمرانية وتنظيم شوارعها وطابعها الديني والمدني. وقد يبلغ ما أفرزت عنه الرحلات -في حالات- إلى درجة الاندهاش، خاصة عند بعض الرحالين الذين تأثروا بطابع بعض المدن الهامة فخصوا حديثهم على أنماط معينة، ومن المدن التي كان لها أثر كبير عند الرحالين الجزائريين في هذه المرحلة، إذا ما أخذنا بخصوصية الزمان، مدينة قسنطينة، بتاريخها الطويل وبمآثرها الخالدة، وبما امتازت به من معاهد دينية وطابع عمرانها وبنيتها الاجتماعية، ف"قسنطينة مدينة الهواء وشهيقه السرور ومسلية المحزون

(1) عبد الله المنازل: "منازل بسكرة" مجلة الشهاب، العدد 30، السنة الأولى، (الخميس 28 ذو القعدة 1344هـ/10-02-

ومنبت الأدباء وكعبة العلم⁽¹⁾ وقد كان لهذا تأثير استقطابي عند الرحالين الذين كانت مخيلتهم تضع في حساباتها أهمية هذه المدينة، حتى إذا ما حضرت العين أتمت ما كان مدرجا في مخيلتها من مفترض هذا ما نلاحظه -مثلا- في قول بن قدور "تقدم بنا القطار إلى أمام المدينة قسنطينة فلاحت لي بيضاء نضرة، يعانقها جمال الطبيعة من كل الجهات، وتحيط بها خضورة البساتين والرياض"⁽²⁾ وإذا كانت العاصمة كما سبق تفتح منها ريح أوروبا الاستعمارية بمختلف عناصرها المكونة للمدينة فإن قسنطينة بدت كما يدان الرحالة: "ولقد لاحت لي الأول وهلة أشكال مختلفة ما بين أبنية عربية وأخرى إفريقية، ولكن الإنسان يتبين صورتها الإسلامية من موقعها الشرقي: بقيت مدرستها العربية العالية ومنابر المساجد المتميزة عن بقيت الأبنية بمنظرها الشرقي البهيج"⁽³⁾.

وهذا إقرارا من الرحلة الذي يسم المدينة بطابع الإسلامي، كون الجمال وحده لا يكفي لصفة ما في المدينة، إذا لم تتميز بجانب من جوانبها الروحية، دلالة على تواتر الأجيال عليها وإشباعها بنسق عمراني معين لا ينتسب للأشكال المجردة، بل إلى إحياء تلك الأشكال بروح من هويتها وانتماءها، مثلما تظهر عليه مدينة قسنطينة بعراقتها التي تحفظ لها مساجدها الطابع الحقيقي لشخصيتها. وبعيد عن الشكل المجرد لمدينة قسنطينة فإن بها سر توحى به، لا يقبض من عضو محسوس بينما توحى به لمن يتوخى طلب وجهها الحسن، وهذا يعود إلى طبيعة الرحالة وما تنهض به ذاكرته من نشاط وتخمينه من استهواء بما تضيء عليه

مرجعياته الطافحة بغلبة المكونات الثقافية الصادرة عن مرجعيات متعددة، فتترسب ثقافة خاصة يحملها الرحالة لينطق بحقها حين مواجهته للمواقع المخصصة في ذاته، كما هو الحال الذي عبر عنه الرحالة (محمد العلمي) حين دخوله قسنطينة، فبادرها بهذه التحية:

(1) محمد العلمي: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 768، الاثنين 29 جويلية 1929 الموافق لـ 21 صفر 1348هـ

(2) عمر بن قدور: جريدة الفاروق العدد، 38، 1913/11/28.

(3) المصدر نفسه.

"السلام عليك يا قسنطينة الغراء ذات الجمال الرائع والمناظر العجيبة. السلام عليك يا بهجة المدن وعروسة الكون. السلام عليك يا قسنطينة العتيقة ذات الهواء الطيب الطلق الحفاف والماء العذب"⁽¹⁾ والرحالة بذلك يكون قد استفتح بميثاق الروح للروح، وكشف عن مراده حيث استهواه المكان "كنت في أيام إقامتي فيها أخرج كل عشية مع بعض الأدباء لتفسح في رياضها واستنشاق هوائها المنعش لأرواح فيعجبني الجلوس وراء سور البلد المجلي الذي يسمونه الطيبة فيزهو قلبي"⁽²⁾ فجمال قسنطينة فتان يثير الإعجاب، لم يستطع الرحالة الإمساك به لكن التلميح يغني أحيانا عن الوصف، نجده مثلا في قوله: "فنعجب لأننا نشاهد جمالا فتانا"⁽³⁾.

وكون الرحالة أدبيا وشاعرا، وجد في قسنطينة روح المدينة التي تدفع بمخاض الإبداع فيصرح بها قائلا: "وينشرح لها القلب وأجد في أعضائي قوة وفي فكري قريحة"⁽⁴⁾ ومنه نجد أن قسنطينة تكاملت فيها روح المدينة الحقيقية التي لم تعد مجرد أشكال هندسية، بل بما توحى به المدينة لزائرها من شعور.

وعند تتبعنا لحديث الرحالين الذين تشعبت بهم السبل في مسالك نحو مدن مختلفة من القطر، نجد عبارات وصيغ متقاربة كلها تشي بالحسن وتتوه بالثناء. فعن مدينة سطيف نجد الفضيل الورثلاني يقول: "سطيف وما أدرك ما سطيف، الكلام على هذه البلدة باعتبارين للبون الشاسع بين تاريخها الغابر وتاريخها الحاضر"⁽⁵⁾ ثم يبالغ في القول عن هذه المدينة "ولو كنت أصف في مقالي هذا موقع المدن وجودة هوائها وعذوبة مياهها وجمال شكلها، لوجدت في سطيف مكان القولمن هذه النواحي ذا سعة"⁽⁶⁾ وهو الحديث

(1) محمد العلمي: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، ع768، الاثنين 29 جويلية 1929، الموافق ل 21 صفر 1348هـ.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) الفضيل الورثلاني: رحلات وفد العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق

(6) مبارك الميلي: تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرناها"، جريدة البصائر، العدد 30، السلسلة الأولى،

السنة الأولى، الجمعة 12 جماد الأولى 1355، الموافق ل 31 جويلية 1932 .

نفسه تقريبا عن مدينة الأغواط في رواية (بن مناد) عندما يقول: "مكثنا ثلاثة أيام بالأغواط وبالجملة فاني لم أر في سائر جولاتي من تونس إلى وجدة مثل الأغواط في تنظيمها ونظافتها"⁽¹⁾.

أما بالغرب الجزائري فنجد من المدن ذات الطابع العمراني المميز كمدينة تلمسان فهي " مدينة جميلة المناخ ذات رياض ملتفة وأنهج متناسقة لسان حالها ناطق بما كان لها من الاعتبار التاريخي والحضارة العربية الأصيلة"⁽²⁾ وكلما ارتبط الماضي بالحاضر في مدينة ما ، فإنه يشكل تفاعل حضاري لم يمكن الفصل فيه بأي حال من الأحوال، خاصة وأن تلمسان من بين المدن الجزائرية التي حافظت على الكثير من معالمها التاريخية، وهي بطبيعة الحال، معالم إسلامية توحى بشيء ما، لم يكن فيها للاعتباط أي منفذ، بل هي نتيجة طبيعية لمستوى فكري وحضاري تدرج مع المدينة لقرون طويلة، فأوحى لها ما أوحى والبقية الباقية من آثارها تدل على مصاعب التأويل لمضيها التليد.

وأهم تلك المعالم مساجدها وأضرحتها التي تتبعث منها رائحة التراث وبعده الحضاري والإنساني والإسلامي، بالخصوص جامع وضريح سيدي أبي مدين الذي يعد مفخرة تلمسان وزينتها، فلا بد لزائر تلمسان من أن يتم الواجب بزيارة معلمها هذا، الذي لم نجد من لا يثني مثلما نوه بذلك أحده بقوله: " ثم سعدنا إلى الجبل المشرف على المدينة لزيارة الشيخ أبي مدين فقدمنا على زيارة الضريح زيارة المعهد على مقتضى السنة فوجدناه معهدا عظيما فمبناه عجيب وآثاره بديعة"⁽³⁾.

ويشكل هذا المعلم صوتا لا شكلا في تاريخ تلمسان، بعبقه الروحي الذي لا يزال ينبع من جنباته المعنوية، فهو يتخلل كل حديث مشرقا ومغربا، بالإضافة إلى مساجد أخرى

(1) قويدر بن مناد: الجولان وفوائده، جريدة البلاغ الجزائري، السنة 2، العدد 29، الجمعة 21 ذي القعدة 1346هـ، الموافق لـ 1928.

(2) عبد الحفيظ الهاشمي: رحلة للمغرب والأندلس، مصدر سابق.

(3) المولود بن محمد الأزهري: رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، مصدر سابق.

وبالأخص المسجد الكبير الذي يتوسط المدينة، فتلمسان " مساجدها كثيرة حسنة جميلة ومن أشهر مساجدها، مسجد أبي مدين و الجامع الأعظم و ما أدراك ما هما"(1)

5- بنية المجتمع في النص الرحلي:

من محاسن الرحلات الحديثة أنها صورت لنا بنية المدينة الجزائرية في عهدها الاستعماري، خاصة المدن الغربية منها، حيث عثش بها الاستعمار وبنى لنفسه مدنا ولما لم يجد من بد في إقحام شريحة العرب في محيطه لغايات ومتطلبات خاصة، جعل لهم تواجدا بمحيطه، فتميزت المدينة ببنية مزدوجة، برزت جراء صورة المجتمع الغربي ومحيطه العمراني وسبل عيشه، وبالمقابل تظهر الصورة المقابلة للعربي بصفات لا يحسد عليها، وجعل المعمر بين الطبقتين سدا فاصلا، عبارة عن مسافة تقصر وتطول، إلا أنها تشكل هوة حضارية، مما يمشي بلسان حال الاستعمار الذي كان عنصريا في جميع صفاته وتصرفاته.

فقد تميزت الكثير من المدن بطبقتين اجتماعيتين طبقة الأوربي الذي ينزوي في مجتمعه الراقى ذي الأبعاد الأوربية، والطبقة الثانية، طبقة العرب الذين يحاذونهم في مجتمعهم الفقير، المعوز، ويميزها طابعها الإسلامي بمساجده وزواياه. فمدينة وهران بالرغم من أنها تضم شريحة معتبرة من العرب إلا أنها لا تستطيع أن تضاهي شريحة المستعمرين التي كانت بكثافة، مما جعلها تميل إلى الطابع الأوربي، مثلما يؤكد قادة بوجلال: "لا أقول فيها إلا أنها مدينة أوربية بحتة سواء في سكانها أو مساكنها"(2) "أما حارات العرب فلا يوجد بها إلا المدينة الجديدة وهي مدينة عربية من حيث سكانها وفيها يوجد مسجدان للجمعة وبعض الزوايا الطرقية والكتاتيب القرآنية(3)" ومثل ذلك ينطبق على مدينة بسكرة، ولو ببنية لا ترقى إلى مصاف مدينة وهران.

(1) حديث متجول: جريدة النجاح، تلمسان الجميلة، ع3853، المصدر السابق.

(2) قادة بوجلال: كل الناس كاملون، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 47، الجزائر يوم الأربعاء 22 ذي الحجة 1356هـ، الموافق لـ 2 مارس 1938.

(3) كل الناس كاملون: مصدر سابق.

كما نستفيد في ذلك من حديث (إسماعيل مامي) عند قوله: "تتقسم إلى قسمين بسكرة القديمة وهي محل سكنى قدماء البسكريين وبسكرة الجديدة وهي التي بها السوق والبناءات الأوربية يوصل إلى بسكرة القديمة (تراماوي) بحصان وبينهما كيلوان ميتر⁽¹⁾" وهي المسافة التي حددها الأوربي كي لا يقترب من العربي، ويكون لكل منهما شأن يغنيه، كما نميز أيضا أن المدينة الأوربية هي التي زاحمت المدينة العربية، وليس العكس مثلما هو الحال بالنسبة لوهران.

أما الرحالة (الحسن الطولقي) فيفصل أكثر في عناصر التمييز بين القسم الأوربي والقسم العربي عند زيارته لمدينة (قصر البخاري) فيؤكد في قوله أن "قصر البخاري عبارة عن مدينة عظيمة وهي قسمان قسم يقطنه المسلمون خاصة ويدعى لدى القصرين بالقصر وقسم يقطنه الأوربيون ولفيف من المسلمين ويسمى عندهم (بالفلاج)⁽²⁾، وبالقصر جامع الجمعة الذي حاز إعجاب السواح لنضارته وحسن مناظره والزاوية الموسمية، وبالفلاج الحمامات الفخمة والبناءات الأوربية وإدارة البريد⁽³⁾".

إن القسم الأوربي يتميز عن القسم العربي بنظامه المدني (عمران مدني حمامات. إدارة بريد...) وهي خاصية مدنية، بينما القسم العربي فيتميز بعناصره المميزة - هو أيضا- (مسجد- زاوية) دليل على أن العربي والأوربي يشكلان قطبين إيديولوجيين، كل يمنح من عناصره الذاتية.

ويعد هذا من الجانب الشكلي أما من جانب آخر فيتميز القسم العربي عن الأوربي في عاملي التحضر والتخلف، فإذا كان الأوربي له طابع واحد في شتى المدن والمناطق التي يؤهلها، فإن صورة الجزائري في كل جهة له طابع خاص يتميز به، ووضع يتماشى مع ظروف الأحداث غير المستقرة، فمدينة (سيدي بلعباس) - مثلا- والتي سبقت الإشارة

(1) إسماعيل مامي: جولة نائبا بالوطن القبائلي، مصدر سابق، العدد 179.

(2) لفظ فلاج منقول بلغته الأم (الفرنسية) ويعني village أي قرية.

(3) الحسن الطولقي: سوانح متجول، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 51، مستغانم يوم 1 ربيع الأول 1357هـ

الموافق ل 1 ماي 1938م.

إلى جمالها وحسن بهائها في ناحية سكنى الأوروبي، ليست هي الصورة في جهة سكنى الجزائري، حيث تنتشر كل أشكال الآفات، يقول عنها إسماعيل مامي: "وأفيت المدينة العربية المسماة عند الأهالي بالقرابة في تفهقها القديم وقبحها المستديم مقاهيها معمورة بالكسالى والبطالين وبطاحها مغمورة بالمداحين والمزمرين ونهوجها ملاً بالأشرار المدججين بسلاح العصي والهرافات إلى غير ذلك من المناظر البشعة والمقلقات"⁽¹⁾ وهو عامل من عوامل النظام واللائظام الذي أراده المستعمر أن يكون ليستقر له المقام مستثمرا في تدهور أحوال المجتمع الجزائري، حتى يستفيد من حق الشرعية الاستعمارية.

5-1 المكان المقدس "المساجد":

يعد المسجد أهم مؤسسة اعتمدت في الحضارة الإسلامية -على الإطلاق- كنادي ثقافي واجتماعي وديني، تمارس فيه جميع النشاطات المرتبطة بهذه العناصر الحضارية "فهو ميدان للدعوة وحاضنة للتقوى، ومعلم للتعليم، وحصن للعقيدة، ومؤسسة اجتماعية وتربوية، ومعقل للتحريض على الجهاد في سبيل الله" حيث كان يقوم في عصور الإسلام الأولى مقام المدارس والجامعات"⁽²⁾.

وإذا كان للمسجد دور كبير في الإشعاع الثقافي والعلمي ومنازة سامقة في تاريخ الحضارة الإسلامية، فإن "المسجد أهم مكان تتمثل فيه العمارة الإسلامية والفن الإسلامي معا"⁽³⁾ حتى أصبحت زينة هذه العمارة دلالة رمزية لا يستغنى عنها في أي مكان عبر أرجاء المعمورة، بل بات في عرف المسلم أن المسجد يعتمد على الجانب الشكلي كطود شامخ لما يشكله من حافظ نفسي ومعنوي، ومنه اتخذ مكانه العمراني الجمالي بعناصره المكونة الثابتة "منبر ومحراب وأماكن للوضوء ومآذن للأذان، ولكنها تختلف بتراز بنائها، وتزييناتها ومحاربتها، وشكل مآذنها، ويغلب على كل إقليم نظام معماري خاص

(1) إسماعيل مامي: على جناح السفر، مصدر سابق، عدد 592.

(2) طه عبد المقصود أبو عبيدة: الحضارة الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ج 1، ص 37.

(3) أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 2، 1977، ص 22.

متأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه⁽¹⁾ ولذلك يقوم المسجد عند السلم على ثلاث جوانب: الجانب الروحي، والجانب الجمالي، والجانب الحضاري.

وقد برز المسجد في الرحلة الجزائرية الداخلية كظاهرة تكرر حالة المجتمع الذي تضاءلت فيه أعداد المساجد، وخبأ دورها، مستجيباً للظروف حيث أن "فئة قليلة بل أقل من القليل تؤسس لها كنيسة ضخمة ومئات من المسلمين ليس لهم مسجد انه لمل يدعو إلى التعجب والاستغراب حقاً"⁽²⁾ وبات من النادر الظفر بمسجد ذي هيئة جذابة، بل أحياناً يتعذر إيجاده تماماً، فإذا وجد فهو لا يمثل ذروة العمارة وإنما يقاس ذلك على معايير البناء الوظيفي، لا الشكل الفني الرمزي، مثلما تؤكد كثير من الرحلات "القرية الأولى لها مسجد كبير متقن الصنع والبنيان"⁽³⁾ أو على أساس العدد المتواجد في كل مدينة أو قرية. لأن الصراع لم يكن على أساس النموذج الحضاري، بل على الحجم والعدد كي يضمن أكبر نسبة للمسلمين في ممارسة شعائر دينهم" وبالبيض أربعة مساجد تقام بها الجماعة والجمعة ولهم صبغة دينية جميلة كلها إيمان طاهر"⁽⁴⁾ ومثل ذلك نجده "بمدينة معسكر مساجد تاريخية وأشهرها الجامع الأعظم الذي يقع وسط المدينة ومن أشهر مساجدها التاريخية مسجد العين البيضاء ويسمونه جامع البيعة"⁽⁵⁾ وهو تعذر واضح من الرحالة الذي لم يجد نشوة الحديث عن هذه المساجد بما تحمله من صبغة دينية وعلامات حضارية، فاكتفى بهذا النزر القليل من الإحصاء دون الوصف.

(1) أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، ص 62.

(2) علي مرحوم: حديث المتجول - الجولة الثانية - البصائر العدد 117، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، 11 ربيع الثاني 1357، الموافق لـ 10 جوان 1938.

(3) علي مرحوم: حديث المتجول، مصدر سابق، العدد 115، السلسلة الأولى، السنة 3، الجمعة 27 ربيع الأول 1357، الموافق لـ 27 ماي 1938.

(4) حديث متجول النجاح.. قاضيان في البيض، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3864، يوم 10 ربيع الأول 1370 هـ الموافق لـ 20 ديسمبر 1950م.

(5) المصدر نفسه.

ولم يخرج حديث المساجد عن معجمه وسياقه الذي طغى عليه ضعف حالها، وضحالة مالها، حتى منها التي نأت عن بسطة المستعمر، كما هو الشأن بالنسبة للمجتمع الصحراوي، فهي على نسق المجتمع عامة، حيث لا تجد فيها ملجأ للراحة ولا مأوى للطمانينة كما يؤكد الرحالة الإصلاحي علي مرحوم، عن حالة مسجد جامعة "عرفت في البلدة مسجدا واحدا كبيرا متقنا، ذهبت لأصلي فيه فلم أجد لا ماء ولا "مستراحا"، وعرفت أن سير الحركة الإصلاحية ضعيف جدا"⁽¹⁾ وقد لجأ الرحالة إلى نسق إيديولوجي، حيث يوحى لنا بأن الحركة الإصلاحية الجزائرية، تقوم بالدور الكامل من أجل تقوية شوكتها، وجعل قوتها من قوة مساجد القرى والمدن، وقد عمت هذه الظاهرة بالفعل وكان نفوذها كبيرا حتى عمت أرجاء الوطن، بما فعلته من تشيدها للمساجد التي أنت ثمرتها يانعة خلال ظرف وجيز.

وهو حال مجتمع مسلم يقبع تحت ظل راية المستعمر الذي لا يدين إلا بدين القوة والبطش، وإذا استتجد بالوسيلة لذلك فسوف يؤسس للكنايس حتى تظل تمثل رمزية النصر، ويحرم المسلمون من ملجأ لتمثيل دين الله الحق حتى غدت صبغة المقدسات صبغة النصرانية كما نستشف من قول علي مرحوم: "عندما كنت مطلا على القرية رأيت صومعة الكنيسة تعلو فوق المنازل فخلت أنها صومعة مسجد ولما أمعنت النظر جيدا تبين لي خلاف ظني"⁽²⁾ وكثيرا ما خلده الأجداد من مساجد قد جعلها المستعمر كنائس حتى يحجب بذلك آثار المسلمين ويطفأ نور مساجد قسنطينة في هذا الشأن "وأما جامع أحمد بآي - جامع سوق الغزل، فهو الآن كنيسة ولكنه بقي بسواريه ونقشه ومحرابه ومنبره أعجوبة أعاجيب الدنيا فلا يوجد ما يضاهيه حتى في أعظم بلدان الإسلام شرقا ومغربا"⁽³⁾

(1) علي مرحوم: حديث المتجول - الجولة الثانية - البصائر العدد 162، السلسلة الأولى، الجمعة 1 ربيع الأول 1358 الموافق لـ 21 أبريل 1939م.

(2) علي مرحوم: حديث المتجول - الجولة الثانية - البصائر العدد 171

(3) الرحلة القسنطينية: العدد 781، الاثنين 02 سبتمبر 1929، الموافق لـ 29 ربيع الأول 1348هـ.

وتعد المساجد العتيقة التي حافظت على سمعتها وكرست نشاطها قليلة، وأهم صورة عنها وأحسنها، تلك التي خاطبنا بها "حسن الوارزقي" من خلال مساجد تلمسان "مساجدها كثيرة حسنة جميلة ومن أشهر مساجدها، مسجد أبي مدين والجامع الأعظم وما أدراك ما هما أما مسجد أبي مدين فيقع خارج المدينة بقليل، وأما الجامع الأعظم فيحتل أحسن بقعة بوسط مدينة تلمسان ولا تسأل عن سعة أرجائه وجماله ونظافتها وكثرة خزائنه حفاظ القرآن بالمد والوقف الذين يرتلون القرآن في أوقات معلومة بأسلوب حسن يخلب الألباب، وقد كنت أذهب إلى الجامع الأعظم بتلمسان لأداء صلاة المغرب فلا أستطيع الخروج منه لعذوبة تلاوة القرآن وحسن تلاوة الطلبة أحسن الله إليهم"⁽¹⁾ ولم يكن لهذا المسجد هذا الدور إلا لأن مجتمع تلمسان حافظ على هويته الإسلامية، بفعل تماسكه وقلة اختلاطه بالأوروبي.

أما مدينة وهران فبالرغم من كبرها وكثرة سكانها فلا يوجد فيها من المساجد الرسمية إلا "مسجد البايعتيق وفيه توجد المحكمة الشرعية وبيت الفتوى لفضيلة الأستاذ النسيب الشيخ البديوي نجل الفقيه الأنور الشيخ المنور"⁽²⁾

5-2- الزوايا:

تحتل (الزوايا) في المجتمع العربي الإسلامي مكانة خاصة، وخصوصا بالمغرب العربي الذي عدها مركزا أساسيا في الرباط والعلم ومجاهدة النفس والعدو على مر قرون متتالية عديدة من تاريخه الإسلامي.

والمميز في نصوص الرحلات أنه يقل فيها الحديث عن وصف الجانب العمراني إلا عارضا، مثل ما نجده في تعليقات وصفية في هذا الوصف حول زاوية ندرومة: "الزوايا الواسعة الفضاء المتقنة البناء على شكل بديع ونوع من التحفة والطرز العصري لتعليم

(1) حديث متجول النجاح، مصدر سابق، العدد 3853.

(2) كل الناس كاملون، مصدر سابق، العدد 47.

بنهم الصغار القرآن الكريم مجودا ويلقنهم مبادئ الإسلام ويهذب أخلاقهم ويربي عقائدهم".⁽¹⁾

فالزاوية مؤسسة دينية تربوية، ومحطة للمذاكرة والوعظ وأيضا مكان مختص في إيواء الضيوف، مثلما قال إسماعيل مامي: "زيادة على ما للزاوية من أعمال البر كالتعليم وقراءة القرآن بها، إيواء الغرباء ونشر لواء السكينة والسلم"⁽²⁾، كما تشهد الرحلات في مدوناتها أن للزاويا روحا للإيثار وميداننا للكرم والعلم.

- صورة المجتمع

- صورة البؤس والاضطهاد

يعبر الوضع الجزائري عن حاله في كل تفاصيل الحياة، فهو لم يسلم من الصور السلبية على جميع الأصعدة، حيث يعاني الفرد فيه الويلات وصعوبة العيش وقساوة الطغيان الاستعماري، وقد تمثلت صور معاناته في أشكال متعددة، وعلى مستوى جميع الفئات وشرائح المجتمع، كما هو الحال في جميع شؤون الحياة ومتطلبات العيش. إن وضع الجزائريين لم يكن على حال المحسود عليه، وإذا كان التاريخ يعتمد على مصادر ووثائق تؤرخ لتلك اللحظات لتبرز أهم تفاصيل القضية، فإن النص الرحلي يشكل أهم تلك الوثائق حيث يعيش اللحظات ويؤرخ لأهم ما يطفو على سطح واقعها بحياد موضوعي، وبتدوين يعود إلى مرجعية كل رحالة مسه من صنوف تلك المعاناة، وإذا كان علم التاريخ يبرز أهم القضايا بتجريد جاف، فإن الرحلة تنتقل تفاصيل الواقع كقطعة منه، فتضيف عليه شرارة لإبعاد ذلك الواقع.

هذا الواقع الذي شهد على أن "في الجزائر طبقة من الناس كبيرة وكثيرة جدا تعيش عيشة البؤس والمسغبة عيشة لا استعطاف المشين الأفكار اللعين، عيشة الفقر المدقع والامتهان تطلب القوة فلا تجده إلا من فتاة الموائد، وتطلب العمل فلا تجده إلا في حمل

(1) خطاب أحمد الملياني: رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الزريوي، جريدة الرشد، ع47، الجزائر، 1939/07/17

(2) إسماعيل مامي: جناح الصفر، ع574، الأربعاء 12 شوال 1346 الموافق لـ 04 أبريل 1928م.

أمتعة المحظوظين من الناس ومسح أحذية السعداء"⁽¹⁾ وهي لحظة البؤس المرة التي لا تعبر عن حالتنا الطبقيّة في المجتمع المختل الذي يمكن إن تعالج قضاياها، بل على حالة البؤس التي فرضها هذا الأجنبي السعيد على الجزائري في صورة الإذلال حتى صارت كما يعبر الرحالة (حسن الوارزقي): "طبقة في جهنم الدنيا تعاني عذاب الحرق، حرق الأفئدة الملتهبة الملتهفة، فسبحان من قسم السعادة والشقاء بين عباده في الدنيا والآخرة، فريق في الجنة وفريق في السعير"⁽²⁾ إلى هذا الحد يعتبر الرحالة هذا الفرق بين الأجانب في سعادتهم وتلذذهم بمعاونة الأهلي صاحب الدار.

ومن حيث ما وليت وجهك وأنت متجول بربوع الوطن، إلا وحاصرتك صور البؤس، وضايقتك عبرات الغبن، وانتابتك كدمات الغيض، هذا ما يصرح به جميع الرحالين الذين التقفوا الى حالة المجتمع، لقد كان "المتجول في هذه الديار إذا ما تأمل حال ذويها لا يحجم أن يقيد خطرات فكره كلما تداعت لمشاهدة الأهلي في تقلباته، ومستواه الاقتصادي والأدبي، ذلك ما دعا (هذا النائب)"⁽³⁾، لأن ينقل بلسان قلمه ما عساه أن يلفت الأنظار، ويحثها على الاعتبار"⁽⁴⁾، هكذا يدلي الرحالة (عبد الرحمان الحسيني) ولعل من شهاداته على هذا الوضع تجاه هؤلاء المحرومين تلك التي ينقل لنا فيها وضعية من وضعيات البؤس في أنحاء بجاية، إذا يقول: "سائرنا البحر من جيجل إلى بجاية طريق مخطوطة من سفح الجبال تصل البلدة الأولى بالثانية. فلا يرى السائر إلا الجبل يسارا والبحر يمينا وما كدنا ندنو من بجاية حتى وقع نظري على أطفال وبنات مغبرين يعلو وجوههم الوديفة الجميلة نقاب البؤس"⁽⁵⁾.

(1) حديث متجول النجاح، في عروس العواصم جزائر بني مزغنة، جريدة النجاح، السنة، 3 العدد 3904، يوم 9 شعبان، 1370هـ، الموافق لـ 16 ماي 1951م

(2) المصدر نفسه

(3) يعني به نائب عن جريدته "الشهاب" أي المبعوث الصحافي.

(4) عبد الرحمان الحسيني: تأملات مسافر، مجلة الشهاب 108، السنة الثالثة، (الانتين 5 صفر 1346هـ / 04-08-

1927)

(5) تأملات مسافر، مصدر سابق.

إن صورة البؤس والمعاناة في المجتمع الجزائري صنوف متنوعة، وكلها تصب في خانة واحدة وإن تعددت أشكالها، منها ما يرتبط بالفعل المباشر الذي يسلطه أفراد المستعمرين، ومنه غير المباشر وهو في الوقت نفسه نتيجة من نتائج الفعل الاستعماري. فقد كان الجزائري في كل حياته معرضا لفعل البؤس والمعاناة لأنه يملك القوة على رده، ولا يملك مقومات العيش الكريم والحياة السعيدة، حتى يتفرغ لما هو أجدى. إن أبسط الأشياء في الحياة لم يكن مطلبها يسيرا، كطلب العلم -مثلا- وهو من المطالب الشرعية والأمور الضرورية في حياة كل مجتمع، فإن مطلبه بات عسيرا في ظل عسر الحياة وشظف العيش، وشدة الفقر، وسدود الباطل المسلط من قبل المستعمر، وهي العوامل الكبرى التي جعلت سواد الجزائريين لا يفكرون في أمر الدراسة ولا يجدون في ذلك من حيلة ولا وسيلة، فكانت حظوظها تقوم على أمرين، أما شد الرحال إلى بلدان مجاورة وهم في سن لا تسمح بتحمل الصعاب مما يدخلهم في باب المغامرة والمقامرة بالحياة، وأما أن يعاني منهم الفرد في بلده المحروم من مراكز التي وإن وجدت فهي لا تبلى أدنى شروط كرامة طالب العلم، وإذا ما صالت الإرادة في البحث عن قطرة العلم التي كان مطلبها عزيزا، وكيفيتها معاناة، فأنها لا تعدو إن تحقق أكثر مما حدثنا به من هذا الحذو: "كانت عادة الطلبة بهذه القرية أن يطوفوا على الأبواب في الصباح والمساء يجمعون غذائهم وعشاءهم، وبعد مشاق وأتعاب ونبح الكلاب، يعودون إلى المكتب بأطعمة مختلفة الألوان متباينة الشكل والمقدار وقد اختلط رطبها ويابسها وحرها وبردها وجامدها بمائعها، فصارت بالخط بشعة كريهة المذاق، بل استحالت إلى مادة سامة لو فحصها الطبيب وحللها تحليلا كيميائيا لمنع تناولها حتى على من لا يجد ما يسد به رمقه"⁽¹⁾.

(1) أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص40.

وهي صورة واضحة لا تحتاج إلى تعليق لإبراز معالم البؤس، هذا إذا أراد الجزائري أن يبحث عن شئ من مبادئ العلم وصنف من صنوف المعرفة، وإلا فالصورة تزيد سوءا إذا ما بقي دون هذا المطلب، فيكبر عود الجزائري أعوجا من فرط الجهل. ومن صنوف البؤس التي كان يعاني منها الجزائري بفعل مباشر من أرباب الأمر والنهي (المستعمر) الذي لم يكن يرى في الجزائري إلا دونه في الإنسانية. ولم يكن الأوربي ليخفي عنصريته فهو المتسلط على البلاد وهو في كل هذا، الخصم والحكم يمارس طغيانه بصورة مباشرة لأن الجزائري محاصر بقبضة من حديد، ليس له فيها إلا أن يكون نموذجا للاستكانة والهوان، لا حق له في العيش بل ليس له أدنى امتياز بسيط في بلده، ولا يمارس نشاطه الطبيعي، وإذا ما أعطى من ذلك شيئا فإنه لا يمثل ذلك إلا المزهود فيه، مثلما يشهد بذلك "أحمد قصيبة" عن القسمة الطيزي التي يقيمها المستعمر على أراضي الشلف -مثلا- الفلاحة: "وفي تلك القرى الجبلية المحدودة الرزق تجد الأوربيين قد عمروها ولم يبق إلا المزهود فيه للأهالي الفلاحين الجبلين"⁽¹⁾، وهذه القسمة وهذا التصرف وهذه العدالة الاستثنائية، لم يخص بها المستمر منطقة عن أخرى. وقد كان المعمر صريحا في معاداته للجزائريين، يمارس عليهم كل أشكال الطغيان، مولدا فيهم عقدة الاغتراب والدونية، وحيث لم يكن للجزائري من ملجئ سوى بلده، فقد كان يعتبر منبوذا عديم الحق، ولو نعلق الأمر بأبسط شئ في الحياة، ما دام أن الإنسان له حاجات طبيعية، وهذه واحدة من المجموع الذي ينقله بعضهم "ومررت عشية بحلاق من الدرجة الوسطى، في النهج المركزي بالبلدة (المسيلة) وكان أصحابي بمقهى، ودخلت أود قص شعري وإذا بالحلاق، وهو ايطالي واضح السحنة، بادي اللكنة، يعترضني عند الباب ويقول بلهجة سقيمة: لا! لا تدخل، هذا خاص بالأوروبيين فحسب"⁽²⁾.

(1) حديث مندوب جمعية العلماء: حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر، مصدر سابق.

(2) حياة كفاح، مصدر سابق، ج 2، ص 100.

ولم يكن للحلاق إلا الامتثال لأوامر فوقية تجبره على النيل من كل جزائري فلا يكون أمرهم شركة بالأوروبيين، ويبرر ذلك توفيق المدني على لسان الحلاق قائلاً: "أنا حلاق بسيط مهمتي أن أكسب قوتي وقوت عيالي، وأود أن أقوم بخدمتك وأخذ منك مالا، فإذا كنت أقول لك لا فاعلم أن الدافع إلى ذلك إنما هو خوفي على حياتي المادية"⁽¹⁾ وأبعد من ذلك أن الجزائري كان في مواضع يمنع من دخول الحمام المعدني الذي تحكمه قوانين المؤسسة بأسباب واهية وحجج ضحلة، بينما يأتي الأوروبي يسمح له ولكلبه الولوج، مثلما تؤكد هذه الصورة أما في الحمام⁽²⁾ فقد رأيت أن الرجل الأوروبي يدخل مع زوجته مع أن قانونها يمنع هذا ورأيت عجوزا من وراء البحار تجر كلبها المدلل وأدخلته بيت الاستحمام معها"⁽³⁾، والرحالة يروي هذا الحدث بعد أن تحدث عن حرمانه من دخول الحمام ولما رأى كيف تكال الأمور جعل يتحدث عن هذا الوضع باستغراب.

وفي حالات كثيرة إذا ما دعي الأمر واقتضت الحاجة، تسلك فرنسا الاستعمارية مسالك ملتوية لتمرير رسائلها الاستعمارية، فكانت تصنع من كل قضية عنوانها، إما الفعل العام فلا يطابق ذلك تماما، ومن ذلك، الحق الديني الذي كان عنوانا لكل خطاب فرنسي، أما الحقيقة فهي العكس، حيث كان الجزائري غير معترف به كإنسان له قداسة وله حقه الإنساني يستحق التكريم على ذلك.

ولما كان الحج فريضة دينية، وفرنسا تعامل الجزائريين بمبدأ الذئاب مدعية أنها تحترم هذا الحق، فإن هذا الاحترام غير تام، عندما تقرأ هذا الاعتراف من الطيب المهاجي حين يقول: " فلقد رأيت بعين رأسي المركب البحري الذي أقل الحجاج إلى جدة، وقد أفرغ من حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب، كما بقي في بعض زواياه أثر أروث البقر والأغنام، وباقي

(1) حياة كفاح، مصدر سابق، ج 2، ص 101.

(2) حمام للوان، حمامات معدنية تقع ببلدية الأربعاء ولاية البليدة.

(3) ع. غ.، الحرمون في الأرض الطيبة رفقا بنا ياسادة...، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، س7، العدد 285، 20 محرم 1374 هـ الموافق 1954/9/17م.

الدواب التي كان المركب ينقلها من بلد إلى بلد، ولا تسأل عن رداءة الطعام الذي يقدم للركاب والذي أخذ منهم ثمنه مقدما قبل الركوب كاللحم المثلج المتغير الرائحة والطعم، يعطونه في الأسبوع مرتين أو ثلاثا⁽¹⁾ فهذه هي حدود الكرامة البائسة التي كانت تمثلها واضحة بالنسبة للفرنسيين، وقد ابرز الرحالة تضايقه الشديد من هذا التصرف الذي في كل أحواله تضيقا في السفر تمثلت في صعوبات الحصول على الرخصة التي لا تتعدى مدتها أربعين يوما ذهابا وإيابا⁽²⁾

(1) أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 68.

(2) حياة كفاح، مصدر سابق، ج 2، ص 100.

الفصل الثاني

الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

1- السرد.

2- الوصف.

3- البنية السردية في الرحلة الجزائرية الحديثة .

4- البنية الزمنية.

1- السرد :

يشكل السرد العصب الرئيسي للخطاب الرحلي عموماً، فلا تتفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثاً وأفعالاً قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها، "ولعل جسد الرحلة يتمثل في السرد الذي يعطي للرحلة شرعيتها الأدبية"⁽¹⁾.

وهذا المسار الذي تعرفه الرحلة هو حيز زمني من خلاله تتفرغ بنايات أخرى خادمة للبنية العامة للخطاب السردية باعتبار أن الرحلة هي ذلك السفر الذي يقوم على التنقل، فكل حركة من مكان إلى آخر لها والذي يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، وهذه المسيرة السردية تتكون من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، أما البنيات الخادمة هي محطات تتخلل المسيرة السردية في الرحلات، حيث يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لهذه المكونات الأخرى بالاشتغال، ولا يوقف الراوي السرد، إلا ليقدم وصفاً أو ليقدم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعراً، وبعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه.

ولما كان الخطاب الرحلي سرداً واقعياً وموقعياً، فهو بذلك يعتمد على نظام السرد الذاتي في تشكيل نمطه، الذي يتتبع ألكي من خلال عيني الراوي (أو طرف سامع) متوفرين على تفسير لكل خبر: متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه"⁽²⁾.

فتتحول التجربة الجسدية إلى معالجة خطابية، تتشكل وفق معطيات الكاتب ايدولوجيا أو معرفياً، بخلفيات متباينة، لأن العملية السردية هي تحويل الأحداث

(1) عبد الرحيم المودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدى أبو ظبي، ط1، 2006، ص11.

(2) حميد لحميدان: بنية السردية من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1993، ص46.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

والوقائع من تجربة معيشة إلى سرد مكتوب من تحريفات وإضافات وإهمال وتقريرية⁽¹⁾ لذلك فنحن نجد مبررا قاصفا لسلطان السرد على التشكيلة العامة للخطاب الرحلي الجزائري الحديث، باعتبار أنه يعتمد على نقل الأخبار والوقائع وتحليلها، ومعالجة الأوضاع وتقويمها، لأنه بكل بساطة هو خطاب رحلات رسمية غالبا تطغى عليها السياسة، والإصلاح، فنصيها موكول للتقرير، وإذا تحفظنا على القول أن كل الرحلات على هذه الشاكلة فإننا لا نعدم القول بأن كل الرحلات اعتمدت السرد كمنطلق عام للرحلة، فأحمد توفيق المدني تستمر عنده وتيرة السرد باعتباره يميل إلى الخبر أساسا، كما هو الشأن عند الإبراهيمي الذي لا يبرح المباشرة في الإخبار عن القضايا واللقاءات التي اعترضته فيقوم كل منهم مقام السارد، الذي يقف شاهدا على أحداث يرسمها كشاهد معلوم، مكونا عبر أحداث وأفعال متعاقبة وسببية في بعض الأحيان - متنا، يرتقي إلى مستوى الخطاب.

2- الوصف:

ينتشر الوصف في مساحات كبيرة من نص الخطاب الرحلي الجزائري، أو قد يتقاسم مع السرد الحصة الكلية لهذا المتن باعتبار أن السرد والوصف نمطان خطابين يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، إذا أن الوصف في الرحلة ليس مفارقا للسرد، بل خادما له، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وبعبارة أخرى: يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص، وذلك بالرغم من الانطباع العام الذي يوحي به النص الرحلي كنص وصفي"فالسارد في الرحلة إذن، يصف ليسرد، ويسرد ليصف"⁽²⁾، هذا في عموم النصوص، لكن نجد أن هناك مقاطع وصفية مستقلة تقوم على تقديم

(1) شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص268.

(2) عبد الرحيم المودن: الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص112.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الجزئيات والتفاصيل للمرئيات أو المشاهدات المختلفة وفي معظم الأحوال، تكون هذه الموصوفات نابغة من عمق السرد، فالرحلة يحكي عن هذه الموصوفات في خضم الوصف، إلى الحد الذي يصبح فيه هذا الأخير مستوى من مستويات السرد⁽¹⁾.

ويتراوح الوصف في الرحلة الجزائرية، من حيث بنية كل نص حسب الظروف الموضوعية التي كتبت حولها الرحلة، وحسب اتجاهها وتوقيتها، فالرحلة الداخلية غير الرحلة الخارجية، والتي كانت تقصد الشرق سواء العربي أو الإسلامي عموماً، حتى الرحلات الأوروبية تختلف في بنيتها، من حيث أنها مزدوجة القصد، فالتى كانت تقصد المدن الفرنسية وخاصة "باريس" في عمومها سياسية يقل فيها الوصف ويكثر فيها السرد والانطباع، فهي من جهة تكتفي بموضوع واحد يشكل مقالا في جريدة، يكشف فيه صاحبه المهمة التي من أجلها سافر ويعطي من خلاله نتائج السفرية_كانت تلبى غرض البرنامج السياسي_كما فعل ابن باديس والإبراهيمي والمدني وبوزوزو..فابن باديس مثلا:حين سافر إلى باريس لم يتطرق إلى باريس بالوصف، لا من حيث المشاهد الجغرافية ولا التاريخية، ولا أجواء اجتماعية وثقافية بها، وإنما حدد الخطاب بالحديث عن المقابلات الرسمية برئيس الجمهورية ووزير الداخلية والحرب.

فقد كانت مهمة سياسية، ومثله مثل الإبراهيمي الذي بالرغم من روحه الأدبية وأسلوبه الرشيق، فإنه لم يصف لنا المحيط الفرنسي العام في المدن التي زارها، ولاجوها العام ولا نواحيها الجغرافية، والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وإنما تحدث عن السلطات الفرنسية، كما أبرز اهتماما بوضع المغتربين الاجتماعي والثقافي والديني من جهة أخرى.

أما إذا انحرف بنا الاستثناء، فسنجد أن محمد الزاهي ألميلي قد فند هذا الادعاء، حيث كانت رحلته من باريس إلى قسنطينة وصفية بامتياز، بل وصف كل المدن الكبيرة التي زارها وطبيعتها بأسلوب أدبي راق⁽²⁾.

(1) عبد الرحيم المودن: الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، ص112.

(2) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج:3، 1982، ص451.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

أما التي كانت تقصد بلدنا غير "فرنسا" فهي في عمومها رحلات استطلاعية_مأعدا رحلة المدني إلى الصين وموسكو_سمحت لها الظروف في استعراض مفاتها اللغوية، ومجالاتها الوصفية، ونخص بالذكر رحلات كل من رضا حوحو إلى موسكو، ومحمد صالح رمضان إلى "فرصوفيا"، والمدني إلى الصين والذي اعتبر بأن وصف مشاهداته فيها لا تكفيها خمسون صفحة، لذا اكتفى بعرض برنامج الزيارات بمتحف الآثار والفحم، ثم إلى "موسكو" وأهم شيء ركز عليه في الوصف الجانب الاقتصادي والسياسي ولم يتطرق فيها للوصف الجغرافي.

أما بخصوص الرحلات المتجهة شرقا، فقد اختلفت وجهتها وتشعبت، وتعددت دواعيها ودوافعها، وكانت مجالات الوصف فيها متباينة، خلقتها الروح العربية والإسلامية التي وطنت نفوس الرحالين اطمئنانا، فكانت الرحلات السياسية تتداخل فيها دواعي أخرى، فهذا الإبراهيمي يقوم بجولة كبرى عبر الدول العربية الإسلامية، ويرصد انطباعات حول المسلمين، ويكشف جغرافية بعض المناطق وصفا، والمدني كذلك -حيث زيارته سياسية بامتياز- يشارك المغاربة فرحتهم بقدم الملك الخامس ويصف، مظاهر البهجة والفرح، ويجول بلدان الشرق، فيصف الملوك وقصورهم، والمآدب والبروتوكولات، والشخصيات السياسية المهمة والمنقفة، كما زار من الدول الإسلامية باكستان و اندونيسيا، فكانت زيارته استطلاعية في ثوبها السياسي، رصد من خلالها وصفا بليغا للمناظر الطبيعية الجميلة.

أما الغسيري فهو كما نعته الركيبي بأنه "مغرم بالوصف"⁽¹⁾ فقد كانت رحلته رسمية في وفد الكشافة، ومن ثم استدعته نسمات الحرم، فلبّ الطلب، زائرا حاجا. ومن خلال هذه الرحلة وصف كل البلدان التي مر بها، وصفا واستطرادا، وحين بلوغه مقام مكة، شرع في وصفها جغرافيا بخلفية تاريخية دينية، يعود بها إلى عهد إبراهيم الخليل، كما وصف مقابر الصحابة والأئمة في المدينة المنورة، وقد تميز في وصفه

(1) عبد الله الركيبي: تطور النشر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص73.

الفصل الثاني: ————— الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

بالإبانة عن رجل أدب يعرف كيف يمرر جمال التصوير الأدبي في ثنايا التقرير السردي، فوقف بين رجل الفكر والسياسة. بينما اكتفى علي دبور بذكر مدينة واحدة بالوصف وهي "طنطا"، في حين زار حمزة بوكوشة ثلاثة مدن مغربية (فأس، الرباط، الدار البيضاء) في رحلة استطلاعية تجارية، ذات طابع وطني، فتعرض بالوصف لهذه المدن الثلاث والأشخاص الذين إلتقاهم والمنطقة ككل، باصما ذلك بانطباعاته حول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وفيما يخص الرحلات الداخلية، لم تكن ذات مبدأ استطلاعي للنزعة إطلاقا، بل كان للرحلة هدفا إصلاحيا ودعويا خالصا، وما كان من أمر الوصف هو لا يتعدى حدود الاستقبال، ومآدب الأكل، وجس نبض الشارع اتجاه دعوات الإصلاحيين ومشروعهم، وقبول الناس على هذا المشروع المادي والأدبي، فقد تهافت الناس على تقديم يد التطوع والمساهمة في بناء المساجد والمدارس الحرة.

ولهثوا وراء الوعظ الديني الذي ظل مكانه فارغا في نفوس المواطنين طيلة عهد الاستعمار حتى انحرفت المعتقدات، وتعطشت القلوب إلى جرعات الإيمان التي تلين القلوب فتذرها طيعة للخير منقادة في سبيله، زاحفة عن الشر متبرئة منه، ومن هؤلاء الرحالين نجد ابن باديس، الفضيل الورثلاني، مبارك ألميلي، محمد خير الدين..

وفي هذا مجال الذي يعد أكبر مجالات البنية السردية مساحة وأعمها موضوعا، وأشملها إحاطة، لا نجد من مبرر لإبراز وكشف كل ما علم وضبط من موصوفات، فليس الوصف سوى شطر من موضوعه الكلي، لدى فنحن نسوق بعضا منها للاستشهاد...

- في الرحلة الداخلية:

فأحسن من يمثل الرحلة داخل الوطن، زعيم الإصلاحيين ورائد النهضة الجزائرية "الإمام عبد الحميد ابن باديس" فهو لا يصف المشاهد الجغرافية ولا المناظر الطبيعية، وإنما الوصف الذي كان يؤثر أن يضيء به نصه الرحلي، هي تلك اللقاءات

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الحميمة التي كان يلقاها في كل استقبال أينما حل ونزل، فكانت حرارة الاستقبال تتعش فيه العاطفة وتریحه كثيرا، وهو مؤشر لنجاح دعوته الإصلاحية، فكان وصفه محددًا بمحدودية الدافع لرحلته، بل أوصافه تمثل بنات عمله الإصلاحی العام، ففي كل محطة نزل بها من محطات مساره الرحلي، إلا واستقبله أهلها بالحفاوة فكان يشعر بالارتياح وهو أول طريق في سبيل نجاح مشروعه "كنا نرى في جميع المجالس إقبالا وقبولا مما لا شك معه في بقاء الأثر الطيب في القلوب إن شاء الله"⁽¹⁾.

وفي إحدى رحلاته بالشرق الجزائري وبالضبط في مدينة مسكيانة وصف حفاوة هذا الاستقبال فقال "وبالغ أهلها في الاحتفاء والاعتناء، وكانت لنا مجالس في عدد محلاتهم التجارية لم تخل من تعليم وتذكير"⁽²⁾ كما صادف نزوله بمدينة عين مليلة، بيوم أقيم فيه مهرجانا للسباق، وقد سماه (يوم سابق) ويرجع أن يكون سباق النخيل هو الشائع يومئذ"⁽³⁾ فقد وشم هذا الحدث بجرة قلم واصفا المدينة بأنها كانت "تموج بالخلق موجا، وكان نزولي بالمكتب القرآني..⁽⁴⁾ أما في غرب البلاد، زار جملة من المدن، وبعض معالمها وأعلامها، فكانت أهم شخصية زارها (أحمد بن عليوة) وهو يومئذ يسير في تيار نقيض لتيار الإصلاح، كما كان ابن باديس صاحب الثورة ضد الطرفين، وقد كان هذا الاجتماع بين الشيخين-المتناقضين-يمثل قمة الحوار والتعايش، فقد استقبل من طرف (أحمد بن عليوة) الذي أقام حفل عشاء على شرف ابن باديس، حتى أن ابن باديس يذكر هذا المقام بالوصف قائلا "بالغ في الحفاوة والإكرام، وقام على خدمة ضيوفه بنفسه، فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر.. ومما شاهدته من

(1) ابن باديس: الآثار، ج4، جمع وتقديم د.عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص305.

(2) المصدر نفسه، ص310.

(3) آثار ابن باديس ص30.

(4) آثار ابن باديس: المصدر السابق، ص301.

أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنه لم يتعرض أصلا لمسألة من محل الخلاف يوجب التعرض لها على أن أبدي رأبي وأدافع عنه⁽¹⁾.

إن هذا الوصف الذي تقدم به ابن باديس، ينم عن إنسان صالح لا ينكر جميلا ولا يجحد معروفًا، ولا يقابل الحسنة بالسيئة، حتى أنه أغلق على الشيطان منافذ الدخول بين الجزائريين في أخوتهم رغم الخلاف الحاد بين الاتجاهين، ومن جانب آخر يحسب للشيخ العليوي الذي أحسن الصنع وكان مثالا للأخلاق العالية، وكان أحسن ممثل للدين الحنيف في قري الضيوف، فقد كان كريما في كرمه، وحكيما في تعامله إذا لم يوظف معاملته هذه في صالح قضيته، بل لم يتطرق لها أصلا.

وقد حظ ابن باديس الرّحال قبل هذه المحطة بمدينة غليزان وأشار إليها بأنها "مثل بلدة الأصنام من ناحية التجارة بل أكثر، ومثل مليانة من ناحية المعارف"⁽²⁾ وبهذه المدينة أيضا يشهد على شريحة "المزابيين" الذين رسخت أقدامهم بالمنطقة، وهم أصحاب تجارة وأسرارها فقد مثلت هذه الفئة شرف استقبال الإمام ابن باديس، وحسب التخمين الذي ينعطف عليه القصد أن حاجة الإمام بالتجار أولى، إذا يمثلون عصب القوم، بما يملكون من أموال لعلمهم يساهمون بما جادت به أيديهم. فمشروع الإصلاح لا بد أن يقوم على المال، وهو نوع من أنواع الجهاد، وربما القرائن التي نجدها في النص الموالى تدل على ذلك: "استدعانا إخواننا المزابيون إلى محلهم وأقاموا لنا احتفالا حضره جميع أفرادهم واستدعوا بعض أعيان البلد، فشهدنا من أدبهم وحسن إقبالهم لجمعية العلماء ما سرنا بهم كثير السرور"⁽³⁾.

كما كان للشواهد على حب الناس لابن باديس ودعوته، ليس في الاستقبال فحسب بل عند المغادرة أيضا يكون الشعور بألم الفراق لأن هذا الرجل في ظرف

(1) ابن باديس: آثار ابن باديس، ص312.

(2) المصدر نفسه، ص311.

(3) المصدر نفسه، ص311.

استعماري كان بمثابة الرصيد الذي يملكه كل الجزائريين. فهو عزيز على كل نفس وتواجهه في منطقة أي كانت، يزيد في دعمهم المعنوي والاطمئنان النفسي، ففراقه بعد الألفة يشكل ألما وحسرة، وقد شهد ابن باديس على هذا: "والحق أن أغلب الناس ممن رأينا صاروا يشعرون بألم الافتراق وينفرون منه، ويصغون إلى دعوة الوفاق والتحاب".⁽¹⁾

- في الرحلة خارج الوطن :

إذا كان الإنسان مجبولا على المعرفة والكشف لكل خفي ومجهول، فلا بد إذن أن يكون له من هذا في أدب الرحلة النصيب الأوفر، لعدة أسباب أهمها: أن هذا الإنسان هو الرحالة المستكشف وهو الكاتب الذي يسرد، وهو المثقف الذي له الوعي التام لانتخاب الموصوفات، وهو القادر على إحالتها أمام هيئة الأسلوب التعبيري الراقى، ومن ثم كان للرحالة الجزائري إذا يلجأ به المقام إلى أرض غير أرضه ومكان ليس بالمألوف لديه، وشعوب وقوميات بخلاف عاداته وتقاليده، في ظل ظروف استعمارية عاشها كتاب ومتفقو هذه المرحلة، فطبيعي إذن أن نحفل ببعض من وصف للأمكنة والأشياء والأشخاص المميزة في جل النصوص الرحلية الجزائرية الحديثة، والأمثلة كثيرة والشواهد متعددة، والوفرة تتطلب الإفادة ببعض الشواهد. وقد يضطرنا المقام إلى تجنب عديد مما وجد من وصف، بالإضافة إلى بعض الرحلات أيضا، تجنبنا للإسهاب ولأن كل من الرحالين يمتاز بنوع من أنواع السرد ونمط من أنماط التعبير فنورده، حيث مكانه المناسب، فلنورد بعضا مما نحن فيه متفقون.

وإذا هممنا بالبداية نكون أما زحمة من الشواهد، إذا الكتاب الجزائريون جلهم كان بارعا في رصد الحيز الوصفي وجلهم كان جميلا في تعبيره، فتلاقح هذا مع المقام وما يميز الوصف في هذا الاتجاه من الرحلة هو وصف المكان ووصف الإنسان، أما المكان له نصيب أوفر مقارنة بالإنسان، أما المحيط الجغرافي العام للطبيعة بما تحوزه

(1) ابن باديس: آثار ابن باديس، ص 311.

من مياهٍ مستوية في أنهار ووديان وبحار، ومن تضاريس الأرض التي تزخر بمفاتيح الشكل والصورة، ثم المدن والقرى وما تتميز به من تفاوت طبيعي أو في القيمة التاريخية والحضارية. وما يميز الوصف هنا، هو التراوح فيه بين الإسهاب والدقة، وبين الاختصار المخل والانعدام، وذلك على حسب درجة أهمية المكان المزار وخصائص الزيارة.

سبيل"محمد الصالح رمضان الذي تعددت مجالات السرد في رحلته القاصدة فرصوفيا، فكانت الوصف أهم محطاته، وانطلاقا من مرسيليا ممثلة مدن الجنوب الفرنسي، ومن خلال مينائها يرصد لنا الكاتب مشهدا يصفه كالآتي: "والمدينة التجارية الكبرى التي يكتنفها الجبال والتلال من ثلاث جهات، وأن الميناء يقوم على لسان من البحر طويل يتوغل في قلب المدينة كالسيف يقسمها نصفين متعادلين"⁽¹⁾ فالملتقى أمام وصف لموضعين متداخلين، فهو يترصد لتشكيل المدينة في مخيلته أم إلى الميناء في جماله المؤنث بمعالم المدينة؟ فقد تزوج المشهد بهذا الوصف الراقى الذي يجعل من الميناء على شكل سيف، مصون بغمد هو المدينة.

ولا شك أن الكاتب كان رحالة جوالا، حيث كان يرصد بل يترصد للمناظر والمشاهد، قافلا عليها في نصه، بوصف مثير عن طريق آليات جمالية، فقد استخدم هذا السلاح بنجاح عال، وهو يرصد مشهدا للطبيعة المشكلة بالبحر والسماء المتناسب لونهما بالزرقة، وبساط الطبيعة الأخضر، المتخلل مساحته قرى متناثرة، عبر مسلك القطار واصفا إياه، بآليات الفن: "هكذا مررنا بالساحل الأزوردي مرور الكرام نتمتع بالنظر إليه من القطار، فنرى حمرة سقوف منازل المدن وبياض جدرانها، بين خضرة المزارع والغابات والأحراش، وبين زرقة البحر والسماء، في يوم مشمس منعش، والقرى الصغيرة والمغاني المنتشرة على ذلك الساحل الأخضر فتخيلها قطعا من

(1) محمد صالح رمضان: سوائح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2004،

الفصل الثاني: ————— الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منثورة على بساط سندسي من القطيفة الخضراء، بالجمال المنظر الطبيعي الأخاذ⁽¹⁾ ومن جهة أخرى، نرى أنه حتى القطار الذي كان أحد الوسائل المساهمة في تلوين المشهد الوصفي، ها هو ينال حظه من الوصف" واستمر القطار يتلوى في سيره كالثعبان طيلة الليل عبر المضائق والمنعرجات، وبين السهوب والكثبان، واستسلم الركاب إلى النوم إلا القليل كان بين نوم ويقظة⁽²⁾ والقطار بالتوائه وإسهابه في السير الحسن.

وقضمه للمسار نحو المكان الممتد الشامل لمشاهد وصور مترافقة، جعل الرحالة يستعظم تلك المناظر التي كانت صفحة الجبل غير المنتهية مسافته، فكان من تأثيره هذا أن صدع بالقول متأثراً بما يلحظ، وعاكسا المشهد تأملياً كيف تكون الصورة إذا ما كان القطار هو الصفحة المرسوم عليها المشهد والمنظر ملتقطاً من الجبل الذي سوف يكون ثابتاً؟ فقال: "ونحن نرى الجبال الشم شوامخ فيهلونا علوها، ونستعظم أمرها لأننا نراها من قرب ومن تحت، ولو كنا نراها من بعد ومن فوق على متن الطائرة أو منطاد لكان نظرنا إليها يختلف، حيث يرى القطار من الأعالي أشبه ما يكون ببرقة صغيرة أو دودة (أم44) بالنسبة لعظمة هذه الجبال"⁽³⁾.

وقد تحقق لمحمد الصالح أثناء رحلته، أن زار مدن عريقة فاحتواها بتعبيره ضمن مؤلفة "الرحلة" كمدينة فينس (البندقية) التي تمادى في وصفها، وبالغ في دقة رصد كامل، المرافق المتميزة بها عن باقي المدن المتعارف عليها في الأوطان الأخر بإيجاز كبير وبوصف دقيق وبتعبير رقيق. فقد سحره المنظر، واستهواها المشهد فدفع للقول "كنت في نفر قليل من الرفاق نخرق كل شارع وزقاق، ونسترق ما فيها من مناظر البهجة والجمال والجلال، ونستبق إلى رؤية ما تتعم به من السحر الحلال، وما

(1) محمد صالح رمضان، سوائح وارتسامات عابر سبيل، ص56.

(2) المصدر نفسه، ص58.

(3) المصدر نفسه، ص55.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

تمتاز به بين مدن العالم من تلك الشرايين المائية الكثيرة التي تتخلل أحيائها وعماراتها، وتقوم مقام الأنهج والشوارع والطرقات، وتلك الزوارق والقوارب والمراكب السابحة فيها، كوسيلة للنقل والمواصلات، تحمل الركاب والسياح إلى مختلف الأماكن والجهات، وبعضها يحمل المواد والبضائع والأدوات والشاحنات⁽¹⁾ والمدينة لا تتوقف في جمالها عند هذا المشهد الغريب بغرقها في المياه، وإنما بما يتشكل مشهدها العام كمدينة وجدت أساليب أخرى خلقت مظاهر للجمال من جاء ما ترتب عن ذلك من تخطيط وهندسة، حتى كان هذا الغرق أهم مكون لجمالية هذه المدينة"يثق المدينة القنال الرئيسي الكبير فيقسمها شطرين عظيمين أو مدينتين كبيرتين تخرقهما كثير من الفروع والقنوات المائية، علمنا من أنها تبلغ (160) قناة تعلوها مئات الجسور والقناطر، وتربط ما بين ضفافها، فتبدوا المدينة وكأنها غارقة في الماء أو تسبح في البحر أو هي تقع على صخور أو جزر عديدة قريبة من الساحل مما يجعل أحياءها أشبه شيء بأرخبيل يتكون من عشرات الجزر مختلفة الأشكال والأحجام⁽²⁾".

وفي طريقه إلى سويسرا قادما من النمسا، مرّ بمدن وقرى أهمها زوريخ، برن، لوزان وأخيرا جنيف. وإذا كانت المدن الأولى محطات عبور، فجنيف كانت محطة توقف وتأمل "ولم نتوقف سوى في هذه حيث أمضينا حوالي ثلاث ساعات استرجعنا فيها رحلتنا، ورحنا نتطلع إلى ساحتها الجميلة وحدائقها الرائعة وشوارعها الواسعة النظيفة ومتاجرها الأنيقة"⁽³⁾ فقد أتى على وصف مدينة جنيف من خلال الحدائق المقترن جمالها بالزهور والورود-طبعاً- وما تحتويه المدينة من أساليب، من بينها أناقة المحلات التجارية التي كانت محل اهتمام الرحالة في تشكيل عناصره الوصفية، بالإضافة إلى أهم شيء في مفاتن المدينة عند استقطابها لزائرها، وهي

(1) محمد صالح رمضان: سوائح وارتسامات، ص56.

(2) المصدر نفسه، ص65.

(3) المصدر نفسه، ص103.

النظافة التي تعد إحدى أسس ومرتكزات السياحة وعنوان تحضرها، وما زادها جمالا إلى نظافتها، البحيرة التي تزيد من حجمها الجمالي فكانت: "مدينة جميلة نظيفة.. وهي تقع على الطرف الغربي للبحيرة الرائعة المسماة باسمها (بحيرة جنيف) وهي قريبة من الحدود الفرنسية. يشق المدينة نهر الرون فيقسمها جزأين: يقع الجزء القديم منها على الضفة اليمنى والحديث على اليسرى"⁽¹⁾.

ولما كان مقصد الرحلة مدينة فرسوفيا، ودافعها الحقيقي هو المهرجان الذي سيقام فيها فقد تم وصف لهذا المهرجان فكان كالأتي "انطلقت المسيرة في قلب العاصمة براياتها وشعاراتها المختلفة في اتجاه الملعب المركزي، استمرت نحو الساعة وسط أهازيج الترحيب والهتاف من المشاهدين الذين اصطفوا ألوفا لا تحصى كبارا وصغارا على جانبي الطريق يلوحون بأيديهم وبأعلام صغيرة حمراء وبيضاء وبالونات ملونة، فهذه المسيرة عبارة عن نهر بشري يتدفق في نظام وهدوء تعلوه رايات الوفود المختلفة الألوان"⁽²⁾.

يلي محمد الصالح رمضان في الرحلة إلى أوربا من ناحية الأهمية، محمد الزاهي ألميلي الذي بدا الوصف عنده متدفقا بالحيوية، ولعل أبرز مثال هذا المشهد الرومانسي الذي سلّ خاطره فنسبه إلى لسان المرأة الانجليزية التي كانت جليسته ومحاورته في الرحلة، وقد اشتركا في المنظر الطبيعي الذي كسا العين بهجة وجمالا حتى رقت له الخواطر، إنها للوحة طبيعية تشكلت بفعل صنع الطبيعة، وإنه هو المعبر عنها فكان هذا التعبير، "إلى هذه الأرض المخضرة خضرة طيبة ما أسعد سكانها، جمال الأبقار وجمال الأزهار وزهو الأشجار واستلقت الأنظار صراحة لونها لون بقرها ولون طفلها لون عجلها تشابها فتشكل الأمر، أشجار مورقة ورقا نصف كسوة

(1) محمد صالح رمضان: سوائح وارتسامات، ص 105.

(2) المصدر نفسه، ص 120.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

ومنتظمة انتظاما يشبه جلسات النواب الذين اشتروا المقاعد في معارك نيابية حامية ودامية⁽¹⁾.

وحين يتحدث عن المدن، فهو لا يصف إلا من منطلق الجمال وتأثيره، ولا يدفعه الوصف إلا ما كان مشهدا حيويا تعيشه المدينة، وتثيره في زائرها، مثل ذلك الذي أدرجه في وصف مدن فرنسا (باريس، ليون، تولون...) فليون يصفها بقوله "ليون بلدة جميلة فاتنة تتخللها أشجار بديعة الشكل والاتساق، وجدتها على شيء من شباب ربيعها لابسة لباس الزينة والجمال الساحر ويمتاز أهلها بمسحة فائقة من الجاذبية المحمومة، يتمتع بها الزائر وقلبه مطمئن بالعطف والتقدير لتلك الظاهرة المحمودة"⁽²⁾ لقد زانه منظر المدينة ورسم لها وصفا ينم عن قلم أديب، يتمتع بأدوات الكتابة الفنية، وآليات الوصف ومدركاته، فجسد هذه الأدوات بالقول السالف، مما جعله مطابق في بعض جزئياته الأساسية على الواقع المنظور بالعين والمحسوس وجدانا وشعورا، حتى إن عين الرضا كانت منصبة على أهلها الذين شكلوا منعطفًا آخر لتجليات الموصوفات، فتكامل الوصف في المدينة، عمارة وحضارة كما تحقق هذا الوصف في مدينة أخرى واختلف عنه، لما زار مدينة تولون السياحية، إذا تحقق الإعجاب بهذه المدينة، وكانت الألفة بين المرئي والشعور ما جعله يقول: "تولون مدينة ذات نظام خاص ونظافة تامة وتنسيق بديع في الطرقات في الحدائق في المقاهي، أول ما يلفت ويغلب نظر السائح ويأخذ نظام العساكر البحرية في أزيائهم الممتازة الموشحة بعلائم وأمارات التفوق والتقدم والفوز في الميادين العسكرية، مناظر رائعة شيقة الجمال والنظام والقوة في الحركات والأشغال واللهو والعبث"⁽³⁾.

(1) جريدة البصائر: سلسلة: 1، سنة: 3، عدد: 125 الصادر في 1 جمادى الثانية 1357هـ/ 29 جويلية 1938م.

(2) جريدة البصائر: السنة الثالثة، العدد 126، في 15 جمادى الثانية 1357، 12 أوت 1938م.

(3) جريدة البصائر: سلسلة: 1، سنة 3، العدد 128، الصادر في 29 جمادى الثانية 1357هـ/ 26 أوت 1938.

والزاهي في وصفه يؤكد على ما يثير في السائح من عامل السياحة وعناصرها، من اتساق وروعة في الأشياء التي تجلب الزائر ومن أماكن الراحة والركون إليها كالدائق والمقاهي، حتى إن المعادلة عنده في وصف المدينة لا تستقيم حتى تتجسد صورة الإنسان وحيويته، فنجد أن هناك نوعا آخر من الإنسان في هذه المدينة التي تحتضن أكبر ميناء عسكري في فرنسا، مما يخلق جوا متميزا في انضباط السلوك، والحركة الدعوب للعساكر وهم يجوبون الشوارع بأزياء عسكرية بلون البحر (زرقاء وبيضاء وقبعات)، حتى كانت ملاحظته أن وقع لها العلامة الكاملة في الحسن، وصرح بأنها ممتازة، بل أكثر من ذلك فقد صنع هؤلاء العساكر جوا كبيرا من الحيوية والنظام والتسلية وكانوا بهجة المآقي ونظارتها.

أما في مرسيليا، كانت المدينة، لا ترقى إلا للفوضى والأوساخ، وما كان فيها مثيرا للوصف كنيستها، وحديقة الحيوانات وأهم ما يلفت أنظار الزائر الكنيسة العالية ذات التمثال الذهبي الجميل وهو تشويق في محله جعل المرسيليين ينحتون منه شعارا مقصودا في شتى نواحي حياتهم العامة والخاصة، وحديقة الحيوانات الأنيقة وما فيها من قرده وخنازير وقطط وطيور ووحوش ضاربة وغير ضاربة جلبت من مختلف الغابات ذات الأشجار الكثيفة القوية ومن سيرك عمار⁽¹⁾.

كما نورد في آخر المحطات الأوروبية شيئا من وصف للأديب "محمد العابد الجلاي" الذي زار باريس فكانت له لقطة وصفية جميلة ننوه بها في المقام، وتتمثل في وصفه منظر عام لمدينة باريس من خلال ما رأت عيناه وتأملت بصيرته من مرصد مرتفع بمقهى من مقاهي باريس الراقية، حين وصف هذه المقهى ورقبها، ووصف شعوره المقشعر لجلال المقعد والمنظر ثم وصف المشهد العام للمدينة التي تقع تحت مرمى العين فقال: "كنت على موعد مع رفيقي الألماني والسيدة قرينته في مساء اليوم الذي وصلنا فيه باريس: تضم إلى جمالها الداخلي جلال الموقع، فالجالس فيها يشعر

(1) جريدة البصائر، سلسلة: 1، سنة 3، العدد 129، الصادر في 07 رجب 1357هـ / 02 سبتمبر 1938.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

بديب العظمة والفضحة ينتشران في ذرات جسمه، فهي تقع في نقطة مرتفعة تجعل جزءا كبيرا من باريس تحت احتلال حسك وأنت في مقعد كمن هذه القهوة⁽¹⁾.

وإذا ولينا وجوهنا شطر المشرق، سنجد أن هناك زمرة من الرحالين من استهواهم الوصف فأقاموا له المساحات و حيزوا له المقامات، حتى أضحى الوصف متعددا ومختلفا، فهناك وصف للطبيعة والمكان وهناك وصف للأشخاص كما أن منهم من زار البلاد العربية ومنهم من عدد فأضاف إلى الأولى دولا إسلامية غير عربية، ويعد هذا الاتجاه أوسع مجالات الوصف من الاتجاهات الأخرى، وفيه أكثر تميز من ناحية التفاوت الفني بين كتابه، ومن أهم الرحالي في هذا الاتجاه الإبراهيمي الذي يبدا أن وصفه لا يعطف على أحدكما هو في كل أسلوبه في التعبير، لذا نجد وتيرة أسلوبه سهل ممتع، دقيق العبارة رصينها، يأخذها من قاموسه الخاص، فيضعها حيث مكانها المناسب في التأثير البليغ، ومن هذا القبيل نورد بعضا مما ظفرنا، فحين كان يتم رحلته من باكستان نحو كشمير، تراءت له مظاهر الطبيعة الخصبة، غير المستغلة، مع ما تتوفر عليه من موارد مائية، إذا كان امتداد الأرض العذراء غريبا يقدر حوالي "ألفا وخمسمائة كيلومتر في سهل واحد ليس فيه جبالا ولا رواب إلى مدى ما تنتهي إليه العين، ومما يؤسف له أن هذه السهول كلها خصبة التربة وتشققها أنهار البنجاب العظيمة وترعها المنفصلة عنها، وكل ترعة تكون نهرا عظيما، ومع ذلك كله.. فإن المساحات الواسعة منها مازالت بورا، والحقول القليلة المزروعة قمحا أو قصب سكر أو برسيما تظهر فيه كالنقط، وكيفية الفلاح ما زالت بدائية عتيقة تعتمد على الجاموس في الحرث والنقل والدياس"⁽²⁾..

وهو وصف للطبيعة ولمظاهر المجتمع الذي بدا بدائيا في تعامله مع الأرض في جلالها، حتى إذا اقترب من كشمير وتجلت صفحات الطبيعة القشبية، شرع الوصف

(1) شهاب، ج11، م11، ذي القعدة، 1354/ فيفري 1936م.

(2) البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي: ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص56.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

يشع بمظاهرها وشيش بروح الأديب وجمالية الأدب، من خلال موجز قصير عرّف من خلاله بمكونات هذه الصفحة التي احتوت جملة من المكونات الطبيعية، والتي شكلت موضوعا للوصف، فزادها التعبير بهاء، وتجلّى ذلك في قوله "ثم دخلنا واديا فيه قليل من الماء والأشجار المثمرة، وأخذنا في الصعود وبدأت المناظر تختلف وتتلون، والمنعرجات تتقارب وتتصاعد، ونحن ننقل في كل خطوة من صحيفة تطوى إلى صحيفة تنشر، فننتقل من جميل إلى أجمل، شعاب وأودية وغابات من الصنوبر منقطعة، وقرى متناثرة هنا وهناك، متصاعدة مع الجبل، تحيط بها حقول من الشعير قليلة العرض جدا، ولكنها مستطيلة لأنها تابعة لوضعية الجبال".⁽¹⁾

كما يستمر وصف الطبيعة عن الإبراهيمي، في مظهر آخر، تمثل في وصفه لوادي "مظفر أباد" فقد سخر لهذا الموضوع آلية بلاغية لتفكيك هذا المشهد، حيث وظف التشبيه الذي احتضر به مسافة القول، وأعطى به نسقا آخر للترويج الجمالي، فقال "و تراءت لنا- ونحن في هذه المنحدرات العجيبة- قطعة من وادي مظفر أباد، الذي يفصل باكستان عن كشمير، ويمر على قرية "جلهم" فيسمى باسمها، فإذا هو كالثعبان ينساب ويلتوي بين تلك الجبال الشاهقة قويا هدارا...".⁽²⁾

أما منصور الغسيري فقد شكل نصه أرخبيلًا من جزر الوصف، إذا أتى على الوصف من كل لون وصنف، عبر طول مساره البري الذي يسمح له بالنقاط صور ومشاهد طبيعية، ومن ذلك المدينة الليبية المميزة "بني غازي" بموقعها الجميل، وخصوبة جبلها الأخضر، الذي ميزها بالجمال، رغم دمار الحرب الذي أتى عليها فترك بها بعض الأطلال "ووصلنا بعد لؤي مدينة بني غازي واقتبلنا أهلها أحسن اقتبال وليس في المدينة ما يوصف إلى هذه الخربات التي تركتها الحرب وإلا هذا الموقع الطبيعي الجميل الأخضر، جبل الرحمة والنعيم بالنسبة للوطن كله فليس له من جهة

(1) البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ص57.

(2) المصدر نفسه، ص58.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

تشبه إلا ساحل عمالة قسنطينة الزاهي بالأشجار والحقول الساحرة، إنه الجبل الأخضر وكفى وليس بعد الخضرة من وصف للجبال".⁽¹⁾

إن قول الكاتب "الجبل الأخضر وكفى" قد ينبو عن نبوة إيحائية لتشخيص أمر ما، وقد يفهم القارئ الرسالة التي يريدتها الكاتب من هذه البلاغة، فالى حد ما تحول جمال الطبيعة إلى جلال الجبل الذي هال النظر وعقد اللسان.

أما في مصر أعجب الغسيري ببيئة المجتمع من روح دينية وثقافية، وأجواء الحركة، كما أعجب بالقاهرة" وهذه قصور مصر الجديدة ذاهبة إلى الفضاء كأنها تعاند أهرام الجيزة، أو جبل المقطم لتتزع منها سيادة الجواء، وتتبئها بأن العلم قد ذلل الصعب وتغلب حتى على الطبيعة" وقد انحرف الوصف ليعلن عن خلفية الكاتب الذي يشير إلى مبدأ تعليمي، يحيل إلى درجة العلم في تحقيق الحضارة والتغلب على الطبيعة⁽²⁾.

ومن أجمل وأبرع صور الوصف التي نقلها الغسيري، لعلها تلك التي كانت في القصر الملكي لدى زيارته للمملكة العربية السعودية، فقد شملت أدق التفاصيل الخدمة ونشاط القصر، ونواحي الجمال والجلال والأبهة فيه، فراح يسترسل في رومانسية أدبية بديعة، حقق بها غالب الأديب الذي يمكث في ذاته، حتى القارئ يلمس جليا دقائق الوصف وروعته، وهو يعنى في هذا القول: "ثم مضينا إلى داخل القصر وسط صفين من الجنود النشيطين المتحفزين كأنهم يستعدون للطوارئ وصعدنا إلى الطابق الأول أين توجد قاعات الاستقبال وأبهاء القصر الزاهرة وهناك رأينا أضخم ما أنتجته حضارة القرن العشرين من وسائل الراحة وأسباب النعيم هذه أبهاء فسيحة تتسع للألوف من الجلوس، قد فرشت أرضها بالطنافس الفارسية الموشاة بأفخر أنواع الوشي، صفت عليها أرائك وثيرة مذهبة تسطع تحت أشعة الأنوار الكهربائية المتألقة

(1) جريدة البصائر: سلسلة: 2 سنة. 6، عدد 250، في 05 ربيع الثاني 1373هـ/26 فيفري 1953.

(2) جريدة البصائر: سلسلة: 2 سنة. 6، عدد 253، في 03 جمادى الأولى 1373هـ/08 جانفي 1954.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

في سماء الغرفات، ومن خلال الثريات المرصعة بقطع البلور الفاتن، وهذه مقاصر ساحرة خلابة يكسو سقفها وجدرانها ضروب من الستائر الحريرية الملونة، وتلك مكيفات هواء سابعة تضيء على الجو الحار الثقيل جوا لطيفا رائعا كما لو كنا على ضفاف بردي بدمشق، أو على شاطئ زيامة منصورية بكورنيش القطر الجزائري الجميل⁽¹⁾ ومما نجده في هذا الصف أن الغسيري قد قرب الصورة وجعلها مليئة بالحياة، فضلا على أنها كانت تترفع عن كل أشكال البساطة، بل يقفز في ذهن المتلقي تشكيل صورة من صور الغيب التي لا نجدها إلا في النص القرآني في عرضه لقصر من قصور الجنة.

ومن أبرز ما يميز الوصف عند الغسيري في المملكة العربية السعودية، هو جمالية المدينة المنورة التي زارها فأبرزها في جو من الكشف وليس الالتقاط، وكأنه يكشف عنها ستارا كان يحجبها، فهي تتراءى بجزئياتها حتى تكتمل في الأخير كليا، وكأن المدينة لا تزال تحافظ على ذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك المشهد الذي صنعه الأنصار بتطلعهم وترقبهم للبدر الطالع. فأول ما يظهر منها غيطان نخلها الدال عليها، فهي به واحة طبيعية وأخرى إيمانية وتاريخية "وما هي إلا هنيهة حتى تراءت أمامنا غيطان نخل باسق سحر ألبابنا بخصه اللامع وقدوده القويمة وعراجينه الزاهية، ثم بدت المدينة وسط الغيطان كأنها أقحوانية بين عرائس المروج، ثم راعنا منظرها العام وهي جاثمة في سهل فسيح لا يحده إلا جبل أحد ومن ورائه بعيدا خبير في شمالها الغربي، على أن هناك هضابا تبدو بين البساتين في غير ما مكان، ولطف الجو.."⁽²⁾ والغسيري لا يكتفي بالوصف الطبيعي، بل يضيف على المشهد، الوصف الجغرافي بتحديد الموقع التام للمدينة المنورة.

(1) جريدة البصائر: سلسلة: 2سنة.6، عدد 260، في 22 جمادى الثانية 1373هـ/26 فيفري 1954.

(2) جريدة البصائر: سلسلة: 2سنة.6، عدد 273، في 26 رمضان 1373هـ/28 ماي 1954.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

وفي موضع آخر، وفي بقعة أخرى من الأرض العربية ذات الجمال الطبيعي، وقعت عيناه على صورة جميلة لبلدة "زحلة" الواقعة بين سوريا ولبنان، قد تمثلت كمدينة أوروبية بفعل الجو الشتوي الذي حاصرها فطوق عليها المكان الذي وجمت خلاله المغاني، فكانت المدينة تحت غمرة رومانسية، فألبها الكاتب من وصفه قائلاً: "غادرنا دمشق إلى بيروت ومررنا بربوع تشبه بلادنا، ووصلنا سهل البقاع، فرحبت بنا مدينة "زحلة" رافلة في حلها بين الخمائل ملاحيتها ومغانيها، ورأينا جاثمة في سفح جبل صنين صامدة للطبيعة تغالبها الشتاء كأى مدينة أوروبية حديثة"⁽¹⁾.

والطبيعة خالدة في الرحلة الجزائرية الحديثة، فقد ساهم أيضا في ذلك محمد علي دبوز، بذكره واصفا منظرا من مناظر الطريق بين القاهرة ومدينة طنطا، حيث كانت الطريق مزدانة وكل ما كان فيها "جميلا فتانا تحفة مزارع الدرة الخضراء وغابات النخل المزركش بعراجينه الحمراء والصفراء، وكان القطار يطير بين مناظر الريف الجميلة وبودي لو تمهل في سيره لتطول متعتي بهذا الجمال الذي ألهم الرافي كثيرا من أدبه الرفيع"⁽²⁾.

- أما بخصوص الشخصيات فهي أيضا تتعدد وتختلف من شخصيات علمية وسياسية، وأخرى شعبية.. ومن أولئك الرحالين الجزائريين الذين يوظفون آليات الوصف الراقية أحمد توفيق المدني الذي حينما يصف، يركز على دقة الملاحظة مبرزاً موصوفاته بأحسن تعبير ودقة، مثال ذلك أثناء زيارة قام بها مع وفد سياسي إلى بيت جمال عبد الناصر، أثر فيه الرجل، فمثله كم رآه بالشكل والأبعاد قائلاً: "كانت تلك أول مرة أرى فيها عبد الناصر في بيته، كان بسيطا جدا، في بيت متواضع جدا: لا رياش ولا أبهة لا تأنق في لباس ولا أثاث وجدنا عنده الأخ فتحي الأديب الذي بقى ساكتا طول مدة ساعتين، وشعرنا لأول ولهة، أي شعر الأخوان عباس وكريم بالقاسم، وكنت أعرف

(1) جريدة البصائر: سلسلة: 2 سنة 6، عدد 274، في 10 شوال 1373هـ/11 جوان 1954.

(2) جريدة البصائر: سلسلة: 2 سنة 8، عدد 336، في 27 صفر 1375/14 أكتوبر 1955.

ذلك وآمن به قبلهما، أننا نجلس إلى رجل تائر يأت معنى الكلمة، لطيف إلى أقصى درجات اللطف، مطلع على جزئية وكلية مما يجري في بلاده وفي بقية بلاد العالم⁽¹⁾ نجد المدني في هذا المقطع قد وصف المكان والإنسان، وأعطى جملة من الأوصاف لجمال عبد الناصر فكانت منظومة وصفية تتم عن إحاطة، بكل شيء في قوة الملاحظ ودقة الوصف، وتقويم ذلك بالإطناب، الذي يزيح الضبابية عن الموصوف.

وإذا تتبعنا أمارات الوصف عند المدني-خصوصا وصف الشخصيات-ألفيناه يحدد موصوفة بدقة متناهية، تتم عن أديب متحكم في أدواته الأسلوبية وخيال ثاقب كما هو في الصورة التالية التي يصف فيها أحد المتعاونين مع الثورة حين لقائه بالطائرة، قال: "وما كدت أخطو خطوتين حتى سمعت من ورائي صوتا يقول لي همسا: اجلس في الطائرة بجانبني. ثم أسرع يتخطى الصفوف، فإذا به رجل طويل القامة، عريض الكتفين، ثابت القدم، ودخلت الطائرة فجلست حيث انتهى بي المجلس"⁽²⁾.

ويحافظ المدني على نفس الوتيرة في وصفه للشخصيات-وهي كثيرة-ففي موضع آخر ومع ملك ليبيا الذي استقبلهم في مكتبه، بدا الملك أصيلا في تواضعه وتقشفه، يجمع بين القوة واللين، والمدني حدّد نقاط وصفه للملك بإعطاء تفاصيل في جزئيات بسيطة تملأ الصورة دلالة، إلى درجة أنه يستعمل أدنى مستويات الألفاظ للدلالة على واقع الملك: "أدخلنا غرفة لا تتجاوز مساحتها 3×4 مترا.

وكان الملك بلباسه العربي وشاشيته التونسية ذات الزر الغليظ، يجلس جانبا فوق أريكة متواضعة سوقية وأمامه منضدة صغيرة وحوله عدد من الكراسي جلست على واحد منها تجاهه.. وتكلم الملك مرحبا، فكان صوته رقيقا جدا، فكانت عباراته بسيطة سهلة، لكننا ونحن نستمع إلى كلماته نلمح من خلال حديثه نكاء وقادا وإيمانا صادقا،

(1) توفيق المدني: كتاب حياة كفاح، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص164.

(2) المصدر نفسه، ص423.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

وعزيمة جهادية متينة العود"⁽¹⁾... والمدني إن يشأ يباليغ في نسيجه الوصفي، إلى درجة الطرافة، حتى لكان الشخصية الموصوفة إلى الخيال أصلح وأقرب منها إلى الواقع، فمثلا حينما نقل مشهدا عن فرحات عباس الذي كان يؤدي بجانبه مناسك الحج، وصفه قائلا: "ورأيت الرئيس فرحات عباس، المتفرنج، رأيته والله يرتعد فرقا وهو بين يدي الله، وقد اصفر لونه حتى أصبح ليمونة صيف، وارتعش إلى درجة أنني كنت أمسك به حتى لا يقع، ووجم كأنما هو صوفي من رفقاء التجنيد، أمام جلال الله، وعظمة الله، وروعة بيت الله، وهكذا تفجر إيمانه، فإذا هو أقوى وأصدق إيمان...." (2)

أما الغسيري وهو أمير الوصف في الرحلة الجزائرية الحديثة، مليّ نصه بهذا الشأن، نجده قد أنه أحاط بكل الشخصيات من ملوك وسياسيين، وعلماء، ومن عامة الناس، وإذا لا يسع المقام، لذكر كل ما ورد عنه نلجأ إلى إبراز يسير مما أفاض. من ذلك حين كانت له زيارة إلى الحج مع رفيقه الإبراهيمي والحج مكان لعصر الذنوب، وتغيير الأحوال، وتطهير النفوس-وعلى حين غفلة منه حتى صدم بتحول صاحبه، من حال إلى حال" ورأيت لأول مرة صاحب الفضيلة الشيخ الإبراهيمي تحت نوع من التأثير العميق، وهيجان الشجون وتأثيره نور الإيمان على روحه الطاهرة يتحول إلى طفل صغير يبكي ويغمغم، ويدعو الله ويسأله المسألة، ويرجوه من الخلاص في الدنيا وفي الآخرة". (3)

وفي موقف آخر، أخذ الغسيري يشخص مشهدا آخر، لعلم من أعلام الزهد والعلم، متمثلا في الشيخ حسونة ألبسطي (هو عالم من طرابلس مقيم بجدة)، فقد أثار الحديث عن بساطته في العيش، وجمعه للمتناقضات، فهو لا يُعلم عنه من ابن يسترزق ولا كيف تأتيه أسباب العيش، لأن فقره مدقع، وضيوفه من غير انقطاع، ومع ذلك فهو

(1) توفيق المدني: حياة كفاح، ص164.

(2) المصدر نفسه، ص413.

(3) جريدة البصائر: سلسلة 02، سنة 06، العدد 262، 06 رجب، 1373، 12 مارس 1954م.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

لا يمل ولا يشتكي من عوز، وهو من يقوم بخدمة ضيوفه، وإطعامهم من جوع، وغناه الوحيد يتمثل في كتبه التي تشكل ثروته، فهو معتني بها أشد اعتناء حرص على جمعها طيلة عمره والمشهد الكامل في قول الرحالة: "وكانه أخذت نسبه لا من بلده، ولكن من البساطة والتبسيط في كل شيء فهو غني بالكتب جمعها مدة حياته ثم جلدّها ووقفها هي في داره التي يسكنها على مدرسة بجدة، وهو فقير لا يملك فلسا، ولا تدري كيف يعيش ولكنه مضياف متلاف غير مكساب طبعا ومع ذلك لا يخلو منزله من الضيوف يطبخ لهم هو بنفسه لأنه الساكن الوحيد بالمنزل"⁽¹⁾

ومن صور الشخصيات في الرحلة الجزائرية الحديثة، ما وصف به حمزة بوكوشة رجل العلم والدين الأستاذ سيدي محمد بن العربي العلوي²، أثناء رحلته الوحيدة التي قادتته إلى المغرب، فهذا الأستاذ العلم، هو علم المغرب العربي حسب وصفه "ثم زرت علم المغرب العربي الأستاذ سيدي محمد بن العربي العلوي" وكان هذا العالم مؤثرا جدا في الكاتب، يلبس رداء السمة والوقار، وذا شخصية جذابة، مع غزارة علمه وكل ما يتصف به العالم الرباني، من ثم خصه الرحالة بالقول: "وهو ذو سمت ووقار وشخصية جذابة، مع غزارة العلم ودقة الفهم وبلاغة التعبير وصدق التصور وسعة الاطلاع على الأمهات والفقهاء في أسرار التشريع مع التعليل والتدليل، وهو إمام حجة ينزع إلى الاجتهاد مع سعة العارضة. وقوة الحافظة هو إمام السلفيين بالمغرب وعليه تخريج النخبة المفكرة من رجال العلم والأدب والسياسة، وهو يجمع بين طموح الشباب وتجربة الشيوخ، وشخصيته محبوبة ومحترمة عند الجميع"⁽³⁾

وكل هذا كان له وقع في حمزة بوكوشة الذي أنزله منزلته، وأشاد بشخصيته،

وأهاب بجلالها.

(1) جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة: 6، عدد 262 في 06 رجب 1373 الموافق لـ 11 مارس 1954.

(2) جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة: 2، عدد 31 في 02 جمادى الثانية 1367 الموافق لـ 12 أبريل 1948.

(3) جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة: 2، عدد 31 في 02 جمادى الثانية 1367 الموافق لـ 12 أبريل 1948.

3- البنية السردية في الرحلة الجزائرية الحديثة:

3-1 السرد:

يختص السرد في الخطاب الرحلي بطبيعة خاصة تمنح من طبيعة الرحلة ذاتها، وهي التي تقوم على إعادة إنتاج الفعل إلى خطاب مع الحفاظ على الزمن والمكان والشخصيات، ومن هذه الثوابت تتمخض خطابات ذاتية وموضوعية ناسجة أحداثا واقعية لأشخاص واقعيين -أيضا- توافقا مع نمط السرد الذي ينزع إلى نظام السرد الذاتي (subjectif) حيث "نتبع الحكي من خلال عيني الراوي أو طرف مستمع متوفرين على تفسير لكلّ خبر: متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع بنفسه"¹ خلافا لنظام السرد الموضوعي (objectif) الذي يكون فيه "الكاتب مطلعا على كل شيء، حتى الأفكار السرية للأبطال"⁽²⁾ فالأول ينشئ بناءه وفق محصول فعل السفر، أما الآخر فيتأثت حسب مستلزمات الديكور المفترض، لأن الأول ينطلق من الواقع والثاني ينطلق من تخيل مسبق.

وعلى الرغم من تباين في الرؤى حول ما انتاب الرحلة من إشكالية في التجنيس، فإن لا يعدم القول بأن الرحلة تميزت وانفردت عن سواها من مجموع الأعمال الأدبية سواء ذات الأعراف التقليدية أو المستحدثة، وأهم ما يميّز جنس الرحلة عن غيرها من الأجناس أنماطها التي تشرف على علميتها السردية.

ولا شكّ في أن الرحلة كعمل فني لا تستطيع القيام بإنتاج خطاب إلا بقوامة عناصره معرفية وفنية شتى، مشكلة بذلك بنية توليفية، ليست مخاضا تسفر عنه الرحلة فقط، وإنما تفرضها طبيعة الرحلة ووسائلها، فتصبح بذلك الرحلة كإطار لبنية سفر تخطيط كل هذه العناصر لتتربع على عرش نصّه مدعية في الأخير الإمارة الإجناسية، بالإضافة إلى أن الرحلة كدرجة ثانية تسفر عن مخاض فكريّ موجّه من قبل ما تحمله

(1) حميد الحمداني: بنية النص السردية، مرجع سابق، ص 46.

(2) المرجع نفسه، ص 46.

الذات الراحلة من نوازح وشجون، ومن مواقف وإيديولوجيات ف "السفر، إذن، لا يرادف فقط تعاقب الأفعال والأزمان، ولا يقتصر على انتقال الأبدان والأوطان، بل إن السّفر يتجاوز ذلك، ليصبح بنية جاذبة لكل الخطابات السائدة في الرحلة"⁽¹⁾ وبيّن ما تحقّقه الرّحلة كنتيجة نمطية وما تسفر عنه من خلفيات، يقوم الخطاب الرحلي على بنية سردية بين العلم باحتمالاتها والجهل بحقيّاتها.

4- البنية الزمنية

الزمن وحدة الوجود التي تنظم عملية الاستمرار في نظام الكون والزمن كيان غير ملموس الحسّ ولكنه بالغ الأثر في استمرارية الحياة، وتعدّ عملية إدراك الزمن عملية وعي جد حساسة لذلك كان التفاوت في إدراكه بين الناس وإذا كان الأديب أو الكاتب على دراية تامّة بقضيّة الزمن فإن ذلك نابع من إدراكه لقيمة الأعمال المبدعة التي لا تخرج عن غطاء الزمن الذي يتشكل في كل أحداث الحياة، فهو يشكّل حضوره المستمر سواء أدرك الإنسان ذلك أو لم يدرك، إذن الزمن حكاية معينة من حكاياته المحدودة، يغدو فيها الزمن "مجرد حقيقة سائلة لا تظهر إلا من خلال مفعولها على الشخصيات والمكان، والزمن هو القصة وهي تتشكّل، وهو الإيقاع"⁽²⁾

وإذا كان مفهوم الزمن سواء على المستوى الفلسفي أو الأدبي تنتشعب فيه المفاهيم، فإنه لا يمكنه في الأخير المروق عن تصنيف ثلاثي: زمن طبيعيّ وزمن أحداث وزمن لغويّ، يوضح ذلك سعيد يقطين حين يحدد مفاهيم هذه العناصر التي تقتضي معنى للزمن الطبيعي وهو الزمن الفيزيائي للعالم، باعتباره زمنا خطيا مستمرا، والذي يقابله عند الإنسان فيما هو مرتبط بالمدة المتغيرة، التي يقيسها كل فرد حسب أحاسيسه وانفعالاته وإيقاع حياته الداخلية أما زمن الأحداث فهو ما يقابله عند الإنسان

(1) عبد الرحيم المودن: الرحلة المغربية في القرن 19، مستويات السرد، ص 152.

(2) سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية (دراسة ثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984،

من متواليات للوقائع، فهو مطابق نفسي مادام أنه يستجيب للواقع⁽¹⁾ من رؤية فلسفية للكون.

أما الزمن اللغوي فهو زمن لساني مرتبط بالكلام أو اللغة ووظيفته خطابية تستند إلى رؤية العوالم الزمنية من زمن ثابت هو الحاضر، ذلك لأن الحاضر هو أساس كل التقابلات الزمنية للغة، وقياساً على هذا نسجل جملة من الأزمنة في الخطاب الرحلي الجزائري الحديث ولكل نوع منها درجة من الدلالة .

ويعد (عمر بن جيكو) من أبرز الرحالين الجزائريين الذين اعتمدوا على تقنية التزمين اليومي.

4-1 الاسترجاع

يقسم الباحثون الاسترجاع في العمل السردي (الأدبي) إلى قسمين كبيرين⁽²⁾ قسم يتعلق بالاسترجاع الموضوعي وآخر بالاسترجاع الذاتي، وهذا يعني أنا السارد في عمله السردى قد يحيل تقنية الزمن إلى حدود تاريخ حياته المحدودة بمسافة زمنية محددة والمحطة التي يطالها الاستنكار، فينبش تلك الذاكرة كمعادل لبؤرة الانتقال (بالنسبة للعمل الرحلي) محصورة بأفق تاريخي محدد، هو تاريخ حياة الرحلة وما ترتب عنها من استجماع لتراكمات بسيطة ومركبة تستحق التذكير واللجوء إليها من أجل الذكرى والسّلوى أما الجانب الموضوعي فيكون الاسترجاع فيه إلى زمن مفتوح يستند إلى تاريخ معين بضبط معرفي خاص كاسترجاع ذاكرة الزمن التاريخي للأندلس بالنسبة للرحالين الذين يزورون بلاد إسبانيا (اليوم) أو أثر التاريخ الإسلامي والبشري

(1) ينظر، سعيد يقطين: قال الراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص161.

(2) عواد علي: تقنيات الزمن في السرد القصصي، من زمن التخيل إلى زمن الخطاب، الأدبي المعاصر، بغداد، ع44، 1992، ص31.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

أو الآثار والمعالم المقدسة وغيرها وهي تقوم على الأفعال الافتراضية التي تتعلق بالشخصيات خارج مجهر السرد⁽¹⁾

هذا الحدث تفرضه طبيعة الإنسان باعتبار أنها طبيعة تكوينية تكتسب المعارف وتراكم القضايا والأحداث، في مجمع حافل من مختلف شؤون الحياة، ما تعرض له هو شخصيا في مسيرته، أو ما استفاد منه من معارف خاصة وعامة من خلال روافد عديدة ومختلفة، يعدّ سجلاً مرجعياً كامناً في أغوار النفس، يعتمد كمؤشر لإحالات نفسية مزاجية أو انفعالية، حين تفاعله بالقضايا والأحداث الناجمة عن حركة الحياة الدائمة حسب ظروفه وأحواله في صور تلقائية تتدفق بالحياة عبر قنوات التذكر أو الحلم أو الحوار الباطني من خلال الإحالات المطابقة، متفقة مع بؤرة الالتقاط حسب الحدث أو المشهد ويشكل بذلك الماضي بؤرته الزمنية والرحلة الجزائرية دائماً تبحث من خلال الاسترجاع الذاتي إلى استظهار المستوى العام للأمة، والوقوف على أهم قضاياها وتشريحه من أجل تشخيص الداء. فلجانب الديني متدهور فإن أراد الرحالة الحديث عن مجتمع متدين لاحظ على مجتمعه بأنه من الزمن الرجعي وهذا ما نجده في رحلة محمد الصالح رمضان إلى النمسا حيث يقول: "وهي التي احتلها الألمان ثم أرجعها الفرنسيون ويقال أن كل مقدار سان تيم من مساحتها أصيب بـ 23 قنبلة مدفعية وبها حصون تدفع على الدهشة والحزن معاً، حصون ويا لها من حصون"⁽²⁾.

4-2 الاستباق:

يتعلق الاستباق في الزمن السردى حول حدث لم يتحقق في مجرى السرد بعد⁽³⁾ يورده السارد باعتباره حدثاً "ينتمي إلى مجرى السرد أو القصة ولا يتجاوزها أو عن

(1) عواد علي: تقنيات الزمن في السرد القصصي، ص 31.

(2) رحلة السيد عمر بن جيكو: جريدة النجاح، العدد 543.

(3) جميل شاكر، سمير المرزوقي: مدخل إلى نظرية القصة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 76.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الإطار الحديثي⁽¹⁾ ومثلما هو عليه في الاسترجاع، يقسم الباحثون الاستباق إلى ذاتي وموضوعي ويعني بالأول "الاستباقات التي تتمثل في أفعال ذاتية تتعلق بشخصية السارد داخل مجرى القصة"⁽²⁾ أما الآخر فيعني به "الاستباقات التي تتعلق بأشياء خارجية لا تتعلق بالشخصية الساردة"⁽³⁾ وفي كلا الحالتين يعتبران إخبارا بعديا⁽⁴⁾ كما أنه يتوزع بين داخلي وخارجي، أما الداخلي فيكون إما تكميليا تتجسد في وعود يعد بها السارد قارئه، يهيئه للانتظار وعده الحق الذي ستسفر عنه أحداث الحكاية من خلال إيعازات إشارية كميثاق للوعد أو استشرافات⁽⁵⁾ تنتبها عن أحداث متوقعة داخل المتن دون أن يتعداه، قد نجدها في غضون ظرف قد يقصر أو يطول وأما الاستباق الخارجي فهو يتجاوز المتن، أي مرتبط بمصير الفكرة عند السارد وليس مرتبطا بأحداث الحكاية.

وإذا كانت حصة الاسترجاع أكثر من حصة الاستباق في الرحلة الجزائرية الحديثة فإن تفسيره يعود إلى الظروف التي ألمت به وصيرته يبحث عن مجده من خلال ماضيه المشرق، أو إلى إثراء حاله الذي استقرّ على المعاناة والبؤس، في حين كانت العزائم والطموحات والأمل تطفح من حين لآخر كفسحة أمل لاستشراف مستقبل أفضل.

لقد كانت طائفة رحلي الإصلاح أكثر المبادرين بهذه الخاصية الزمنية، فكثيرا ما كانوا يبشرون بالتفاتات تحيل على بصيص من الأمل والرجاء في سبيل غد مشرق، وهي نتيجة توقعات استشرافية.

(1) ينظر: محمد سويرتي: النقد البنيوي والنص الروائي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991، ج2، ص63.

(2) عواد علي: تقنيات الزمن في السرد القصصي، ص31.

(3) المرجع نفسه، ص31.

(4) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص77.

(5) حسن بحرأوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص132.

فلو لا تلك الرؤية لما كان ذلك الجهد المضني في السفر والمذاكرة "كنت أذكرهم بهذا كله وأقرأ على وجوههم سيمات القبول والإذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق وعد قول الله تعالى: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾

3-4 التسريع:

إن عملية التسريع ليست مقتصرة على إشكاليات الخطاب بما يحمل من أحداث هامة وأخرى لا حدث، بل هو ناجم أكثر من ذلك عن خصوصية في حياة البشر إن المدة في حد ذاتها، لا تشكل حدثا بالنسبة لمتلق الخبر أو التقرير فقول أحدهم ذهب من الجزائر إلى باريس المدة ليست مهمة في حد ذاتها، إذا هي تتشكل تلقائيا، أي أن الذات بذاكرتها سوف تمنحها زمنا تقريبا لا شعوريا، فيربط الإنسان هذه الجملة بزمن يساق إليها من خلال خبرته في تعامله مع الزمن، أما الزمن الحقيقي بالنسبة للرحالة هو الزمن الذي تتم فيه فائدة وظيفته ويقدم فيه أعمال وتتسج فيه عروض، هو الزمن المملوء الذي يستحق أن ينوّه بما حمل.

4-4 الحذف (القفز):

يعتمد الكثير من الباحثين إلى الفصل ما بين الحذف والتلخيص، على اعتبار أن لكل منهما مفهومه ووظيفته الخاصة، وهذه حقيقة بينما ندرجها نحن - في توحيد بينهما، ذلك كون وظيفتهما تتقاطع فما دام التلخيص هو تقليص من مسافة الزمن المرتبطة حتما بمسافة الطريق العاصّة ببلدان ومدن وقرى وأحداث، فما دامت أنها تلخص أهم الأحداث فهي بالتالي ستقتصر على مواضع دون أخرى وأحداث دون سواها، وبالتالي سوف تحذف تلقائيا الكثير من هذه الأشياء مما يفسح المجال لذوات الأهمية فإذا كان الحذف على مستوى الكائنات التي يختص منها الرحالة ببعض ويترك بعضها الآخر فإنه بالضرورة سيقصي أزمنة لأنها أحداث ساهمت في التقاط المشاهد وتثبيت الرؤى، ومسح الأمكنة، مجموع تلك المبررات التي كسحت عيني الرحالة في

(1) مجلة شهاب: مصدر سابق.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

زمن طويل، سيلخصها في صفحات بمقاس فني حسب ما تقتضيه ضروب التشويق والمعارف والتوثيق، ففعل السفر سوف يبقى مجرد سند مرجعي على حدوث الأحداث زمن السفر.

فراوي قصة الرحلة ليس بإمكانه أن يخبر عن رحلته التي دامت السنوات أو الأشهر أو الأيام والأسابيع، "في مثل هذه الحال يكون الزمن على مستوى الوقائع زمنا طويلا، أما معادلة على مستوى القول فهو جدّ موجز، أو يقارب الصفر".⁽¹⁾

مثال ذلك نجده من خلال نص الرحالة (عمر بن جيكو) يقلص الأيام بالقفز الزمني "يوم الخميس من أفريل 1927 سافرت من قسنطينة صحبت أختنا في الله المكرم السيد مامي إلى بلاد مالطة يوم الاثنين مسافة يوم في البحر فاكثرنا في الدرجة الأولى بـ 322 فرنكا فأقمنا بها 8 أيام ثم سافرنا على ظهر باخرة مائية تسمى قليلة قاصدين بلاد الإسكندرية فأرست بنا في بلاد طرابلس لتتزلزل بعض السلع وأقمنا في بلاد طرابلس يومين ثم تمادت في سفرها مدة أربعة أيام وصلت بنا إلى الإسكندرية فأرست بصحة وسلامة والحمد لله".⁽²⁾

4-5 الوقفة/ الاستراحة:

يعني واقعية الرحلة في بناء أحداثها، أنها في أهبة الاستعداد لاستقبال مؤثرات مكانية أو شخصية أو أشياء مثيرة، قد تستدعي الوقوف عن مواصلة سرد الأحداث مؤقتا، ولأن الراوي -في رحلة- سيقدم بعض التفاصيل التي ينفذ من خلالها إلى التشويق، فهو يعد الموصوفات حالات استثنائية يقدمها حجة على نجاح رحلته في تبرئتها، وكلما كان الموصوف جليلا رائعا، كلما تمت نشوة الاستقطاب السردية الذي يختال في توقفه لإبراز تلك النعوت عن كمّ الحالات التي تستوفي شروط الوصف لأن الرحلة مشروطة بالوصف، وليس كل ما من شأنه أن يُرى يوصف لذلك تعتبر

(1) تقنيات السرد الروائي، مرجع سابق، ص 82.

(2) رحلة السيد عمر بن جيكو جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد، 533.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الأوصاف وقفات تستوجب صمت الزمن وإلزامه على التوقف حتى يسمح للراوي من عرض الصور البلاغية التي تكسر جفاف السرد، ويجدد قيمة الاستئناف السردية في إضاءة الحدث القادم، الذي كلما توقّف في محطة إلا وزود الحكاية بمكونات يعطف عليها مشروع نجاح الحكاية ككل.

فتمثيل كفة الوقفة التأملية النفسية إلى جانب الذات لتفرغ شحنات وجدانية يعيش فيها الرحالة لحظة تأمل في محيط الرؤية وفضاء المكان مثلما نجده في رحلة (عثمان سعدي): "وقفت بين هذه الأجناس المتعددة وكأني غريب عنهم لا تربطني بهم المخيلة ولا يوجد بيننا الإحساس لأن تذوق الجمال عبارة عن احتكاك بذرة في المنظر مع بذرة في النفس، وكيف يتذوق رائحة الزهرة من مكان مريض بالزكام"⁽¹⁾

4-6 المشهد:

يأتي المشهد في الخطاب السردية عموما والرحلي منه خاصة، لسد الثغرة السردية المهمة، وهي إيقاف الزمن على مسرح حدث مثير أو مشهد لا يرضى الشرح، ولعله بذلك يكون بمثابة الوثبة الزمنية القارة على امتلاك اللحظة وتوقيف الزمن الذي يقطع فيها المسلك بخطى بطيئة حتى يستقصي لمحات وجه الحدث بحذر في رسم معالمه، وهي اللحظة الوحيدة في العملية السردية التي يتساوى فيها زمن القصة مع الزمن الخطاب، ويكون الزمن السردية في أقصى حالات بطئه "ومادام أن الرحالة ينتابه شعور بتقديم أشياء جديدة للظفر بالقارئ الفضولي، فهو يترصد المشاهد ويقيم لها كل المرصاد بغية القبض عليها وترتيبها على مسافات من مراحل الحكاية.

ويترتب ذلك على تصوير حركة الشخصيات وأفعالها، وهول المكان وجلاله. ومثل ما هو المشهد قائم على لحظة التوقف يشعر فيه القارئ أنه بصدد اطلاع على لوحة مرسومة، أو على حركة بطيئة يداعب فيها السارد رسم المشهد على هيئة لقطات تلفزيونية ولا نقصد من خلال ذلك، الوقفة التي مرّ الحديث عنها، بل إلى حوارية

(1) عثمان سعدي: وطني، جريدة البصائر، مصدر سابق.

الفصل الثاني: الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة

الرّاي مع المشهد المرئي الذي يثير عاطفة الرائي ويفعل دوافعه الانفعالية، بالإضافة إلى ذلك ينقل الحوار الذي ليس في إمكان الراوي اختصاره لأنه يمثل ببساطة الخطاب القطعي الدال على واقع معين، وهي "اللحظة التي يتطابق فيها زمن السرد القصة من حيث الاستغراق.

ومثال ذلك في الأدب الجزائري الحديث عند محمد البشير الإبراهيمي "وقد يبتدئ أول سطر من أعلى جبل ينتهي آخر سطر في حافة الوادي، وما أعجب هذا المنظر وما أجمله"⁽¹⁾

(1) محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج4، 1985، ص58.

الخاتمة

يشكل المتن الأدبي الجزائري في العصر الحديث معضلة أرقت الباحثين، وأحالاته كمادة متاحة للقارئ والناقد على السواء، شعرا كان ذلك أو نثرا.

وإذا كانت هناك أنواع من الأدب قد عرفت طريق إلى الوجود بفضل صفاء جنسها حيث سهل القبض عليها ومن ذلك الشعر والقصة القصيرة والمقال مثلا... فإن جنس الرحلة حُجِب وتكرر له الجميع، نتيجة الجدل المعرفي بشأنه ونتيجة مغامرة الكتابة التي ينضوي تحتها..إنه الفن المغلف بدثار مختلفة الشكل والحجم، مما جعل مادته في حاجة ماسة إلى أهل التخصص كي يستلوه من أمشاج النصوص التي احتوت كل شيء، وجمعت في دفة واحدة، نأت بالنص الرحلي، وأسفرت عن نتيجة في أحسن الأحوال هي الغموض وفي أسوأها العدم.

إن ما عرفته الرحلة الجزائرية الحديثة (1830م، 1962م) هو الزخم الكبير من النصوص المترامية في بطون الصحف والمجلات وبعض الخزانات على امتداد القطر، نتبين أهمية هذه النصوص أنها واكبت فترة زمنية طويلة وحرجة من تاريخ الجزائر، ورافقت أجيال مختلفة وأطياف متشعبة ومستويات لغوية متذبذبة، وكشفت عن تاريخ المرحلة فنيا واجتماعيا وثقافيا، ونقلت لنا صورة المجتمع من الداخل. وفي الأخير توصلنا إلى النتائج الآتية:

- الرحلة جنس أدبي يتمتع بجميع المقومات الأدبية
- صورت الرحلة مظاهر المدينة بعمارتها ومقدساتها، ومعالمها... وصورت مستوى البؤس الذي كان يعيشه الجزائريون جراء الاستعمار الفرنسي
- الكشف عن طبيعة السرد من خلال بنية الزمن والشخصيات حيث يعتبر كليهما على قدر أهمية السرد.
- يشكل الوصف دينامية للسرد من خلال وصف الهوا جز الذاتية والأبعاد النفسية والجمالية لاستمرار عملية الحكى.

- أثبت الرحلة الجزائرية الحديثة حضورها الفني فتيبين أنها نص أدبي كامل يتمتع بجميع المقومات الأدبية والمعايير الجمالية.
- ومجال الدرس الرحلي في الجزائر ميدان بكر، يحتاج إلى جهود الباحثين والمهتمين به من أجل إثراءه وفتح آفاق جديدة للبحث.
- تنوعت اهتمامات الرحالين حسب اتجاهاتهم الإيديولوجية، كما تنوعت أساليب كتاباتهم وتميزت بقوة العبارة وسلامة اللفظ، وسأيرت أنماط الكتابة الحديثة.
- أنتجت الرحلة الجزائرية الحديثة قوالب جديدة أقرب إلى المقال حيث اعتمدت الأسلوب المباشر الذي يفيد التقرير.

الملاحق

محمد بن العابد الجلاي 1925:

ترجمة الرحالة



هو الشيخ والأديب محمد بن العابد بن عبد الله بن الجموعي بن السماتي الجلاي، ولد ببلدة أولاد جلال (تابعة لولاية بسكرة بالشرق الجزائري) عام 1893م، اخذ العلم الشرعي وحفظ القرآن على يد والده -الذي كان عالما فقيها- بمسقط رأسه، ثم وصل دراسته عند الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي لزمه ملازمة الظل لفترة

طويلة، أكسبته هذه الملازمة مجالا واسعا في عالم الصحافة حيث كان كاتباً ومندوباً لعدة صحف إصلاحية، أهمها، جريدتي المنتقد (1924) وجريدة الشهاب (1925-1939) لصاحبهما الشيخ ابن باديس، كما فتحت عليه هذه التجربة أن أسس جريدة "أبو العجائب" سنة 1934، وهي جريدة هزلية ساخرة.

كما أكسبته ملازمة ابن باديس الاشتغال في سلك التعليم العربي الحر ابتداء من عام 1930 والتي أصبح من خلالها معلما منتقلا لعدة بلدات في الوطن، كالعلمة وبسكرة وعين مليلة، ودام على هذا حتى اندلعت الثورة التحريرية، حينها ترك التعليم والتحق بصفوف جيش التحرير الوطني، وقد ألفت عليه قوات الاحتلال القبض سنة 1955 وسجن إلى عام 1961 ثم عاد إلى الاشتغال بالتعليم في مدينة عين مليلة حتى أثقل عليه المرض فعاد إلى مسقط- رأسه واعتزل الحياة العملية حتى وافاه اجله يوم 02 فيفري 1967م

ومن الأعمال الجليلية التي قدمها محمد بن العابد، انه شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، وكان حيويا نشطا، كثير النقد والانتقاد لأمر

الأمة، كما أن انتماءه الإصلاحية لم يمنعه من الانضمام إلى "حركة أنصار الحريات الديمقراطية" وهو الحزب الذي أسسه مصالي الحاج عام 1946.

وإضافة إلى جهاده السياسي والميداني، فقد كان ابن العابد من أهم أدباء الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين، إذ يعد من رواد القصة القصيرة في الجزائر، ومن أهم الكتاب الصحفيين، يتميز أسلوبه بالسخرية والتهكم والنقد، كما أنه كان شاعرا متعدد المضامين، له ديوان الأناشيد المدرسية لأبناء وبنات المدارس الجزائرية صدر بتونس عام 1939، كما أن له عدة قصائد في أغراض مختلفة كانت تنشر في الصحف والمجلات، ومن أعماله أيضا كتاب تقويم الأخلاق، طبع بقسنطينة عام واحد.

محمد الهادي سنوسي أزاهري 1925 :

ترجمة الرحالة

ولد في 13 جوان 1902 بقرية ليانة من ولاية بسكرة بلشرق الجزائري، تكون بادئ امره على يد والده بحفظ القرآن الكريم ومبادئ في العلوم الدينية والعربية، بعدها التحق بقسنطينة فلازم الامام عبد الحميد بن باديس سبع حوالي سنين، حيث كان لهذه السنين اثرا في تحوله ومنهجها في حياته، اذا كان قبلها يتمتع بسيرة صوفية مشبعة بلخرافات، ثم صار واحد من أهم رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكبار أدبائها وشعرائها ومربيها.



بدأ نشاطه الإصلاحي بمدينة بسكرة تحت لواء الشيخ الطيب العقبي، وبعد خوض الحركة مجال الصحف اصبح من محرري جريدتي "الشهاب" و"المنتقد" سنة 1925، بل لم يكتف ببلتحرير، فكان من متجولي هذه الجرائد للترويج لها وجمع اشتراكاتها في كافة القطر الجزائري. وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان من أهم مؤسسيها. وقد كلفته الجمعية بمهمة الوعظ والارشاد والتوجيه والتكوين بين المغتربين في فرنسا مع جملة من شيوخها.

اشتغل معلما سنة 1928 بمدرسة (الشبيبة الإسلامية الجزائرية) ثم مديرا لها، ثم في الثلاثينات تحول في المهمة نفسها الى مدينة (تلمسان)، ثم بمدينة (سيدي بلعباس) بلغرب الجزائري، وقد استقر بهذه المدينة الأخيرة سنين كان يزواج فيها بيت التعليم في مدرستها، وبين الوعظ والارشاد في مسجدها. وفي هذه المدينة تعرض لتحويلات كبيرة بعد الضغوط التي مارستها عليه السلطات الفرنسية، وضغوطات من محيطه، الى جانب سوء تفاهم حدث له مع زملائه الاصلاحيين، مما اضطره الى أن يوقف نشاطه

في هذا الميدان، ويشتغل بالتجارة لبعض الوقت، حتى سنوات الخمسينات حيث اشتغل بلعمل الإذاعي. وبعد اندلاع الثورة في نوفمبر 1954، انضوى تحت لوائها.

كان السنوسي أدبيا يجمع بين الشعر والنثر، الى جانب الخطابة التي كان فيها مصعقا، وكان بليغا وجريئا. وقد استمر دؤوبا في مجال الأدب والتربية والإصلاح والصحافة الى أن تعرض لحادثة تسمم بالغاز، أصيب جراءها بالشلل، فلزم بيته الى أن توفي ليلة الجمعة 17 رمضان 1394 هجري الموافق لـ 14 أكتوبر 1974، ودفن بحي (القبّة) الجزائر العاصمة.

خلف السنوسي ديوانا شعريا، الى جانب كتاب هام في الشعر الجزائري وتراجم رحالاته (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)، الذي جمع فيه تراجم لبعض شعراء مرحلة النهضة في الجزائر، وبعض المختارات من شعرهم. صدر أول مرة سنة 1926 بتونس. ثم أعيد طبعه في السنة الموالية 1927 بنفس البلد.

محمد عبابسة الأخضرى 1927:

ترجمة الرحالة:

عبابسة محمد الأخضرى من مواليد 1892 ببريكا (باتنة)، زوال تعليمه الابتدائى بعين توتة (باتنة)، وكان متمكنا فى اللغة العربية وبها أحسن صنع الشعر، خصوصا الشعبى منه فكان يجرى به السلطات الاستعمارية، حتى تضايقت منه وضيققت عليه، وشدت عليه المراقبة. جاهد الأخضرى من أجل لقمة العيش فأسس مع أخيه (مبارك) شركة نقل المسافرين بين بريكا و باتنة، وسنة 1926 غير مسار خط العمل من باتنة إلى بسكرة، فاختار هذه المدينة مستقرا له، وسنة 1929 أفلست شركته، فاضطر للهجرة إلى الجزائر العاصمة سنة 1930، وبها أنهى حياته.

عرف عنه انه كان من المقربين لابن باديس وذلك ما جعل بينهم مودة إلى درجة أن ابن باديس طلب منه الإشهار لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال جريدته "المرصاد"، التي أسسها هو نفسه، وقد كان ذلك الطلب من باديس فيه نوع من الذكاء إذا كلفه أن يختار ثلة من جماعة نادي الترقى الذين لا يثير ذكر أسمائهم شكوك الحكومة او مخاوف أصحاب الزوايا، وتتولى هذه الجماعة توجيه الدعوة الى العلماء لتأسيس الجمعية فى نادي الترقى بالعاصمة حتى يتم الاجتماع فى هدوء وسلام، وتتحقق الغاية المرجوة من نجاح التأسيس، فكان داعية الإصلاح السرى، ثم فتح أبواب الجريدة لكل أقلام الإصلاح كالإبراهيمى والتبسى ومحمد العيد، توفي عبابسة عام 1953م رحمه الله، ودفن بحى باب الواد بالجزائر العاصمة.

عبد الحميد ابن باديس 1929

ترجمة الرحالة:



باديس القسنطيني الجزائري، ولد بمدينة قسنطينة في 4 ديسمبر 1889م، ونشأ في أسرة متدينة كريمة ذات عراقة وثناء، وهي من أكبر الأسر القسنطينية، عراقة وشهرة بالفضل والعلم، يمتد نسبها إلى المعز ابن باديس الصنهاجي، وكان أبوه يعد من أعيان المدينة.

حفظ القرآن وهو في الثالثة عشر من عمره، ثم لازم العالم الكبير "حمدان الونيسي" بجامع سيدي محمد النجار، وتلقى منه العلوم العربية والإسلامية، وكان لهذا العالم أثر إيجابي في نفسه، وكان الشيخ الونيسي يحبه كثيرا، وكان يقدمه لصلاة التراويح بالناس على صغره وسنة 1908م التحق بجامع الزيتونة (بتونس)، فأخذ عن جماعة من كبار علمائها الأجلاء، منهم العلامة "محمد النخلي القيرواني" 1923م، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور 1937م، والشيخ البشير صفر، وغيرهم.

عاد إلى وطنه بعد تخرجه بشهادة التطويع سنة 1912م وشرع في التدريس بجامع قسنطينة الكبير بعقده حلقات درس، ولم ضايقته عليه السلطات الاستعمارية، فكر في الهجرة إلى المشرق، فارتحل إلى الحجاز واتصل بجماعة العلماء المفكرين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكان الاحتكاك المباشر الذي ولد له رؤى المستقبل الإصلاحية في بلد، وقد نصحه أحد العلماء بالعودة إلى وطنه من أجل الإصلاح. ومن حسنات رحلته هذه أن تعرف بصاحبه "محمد البشير الإبراهيمي".

ومنذ عودته إلى قسنطينة 1913م بدأ بعمله الإصلاحية في جمع شتات العلماء، وتكوين أجيال الثقافة والمراس السياسي، بالتكوين العلمي والتربوي إلى أن تحقق له ذلك سنة 1931م حيث أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن ثم ظهر وجودها قويا في

إصلاح المجتمع من الانحراف الأخلاقي والعائقي، فحارب الأخلاق الفاسدة والعادات السيئة والمعتقدات الباطلة، كما قاوم الاستعمار بشتى الوسائل. فقد أسس لذلك مدارس حرة للتكوين العلمي ومحو الجهل بالبلاد، وشيد المساجد للوعظ والإرشاد، وحرر العقول. كما أنه أصدر جرائد لنقل أفكاره أهمها، جريدة "المنتقد" و"الشهاب"، وتنقل في شتى أنحاء القطر لبث الفكرة في كل مواطن. توفي الشيخ ابن باديس بعد مرض شديد يوم 16 أفريل 1940م، عن 51 عام، ويوم وفاته خالد في تاريخ الجزائريين، حيث صنف بيوم وطني يعرف بيوم العلم، تحتفل به الجزائر سنويا.

وله أيضا رحلة (في بعض جهات الوطن) 1931م، ورحلة (ثلاثة أيام ببسكرة)، ورحلة (رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية)

للرحالة المهدي البوعبدلي 1931م:

ترجمة الرحالة

رجل دين صوفي، باحث ومؤرخ ومحقق، له اهتمام كبير بالتراث الجزائري، إمام أكبر بالثقافة المحلية، ولد يوم الخميس 10 ذي الحجة 1324هـ الموافق لـ 25 جانفي 1907م، وهو من أسرة عبد الله المغوفل بالشلف، كان والده الشيخ بوعبد الله رجل صالح، يسعى إلى تربية النشء وتحفيظهم القرآن الكريم، أسس مدرسة قرآنية فكان لها أثرها على الابن (المهدي)

زاول المهدي تعليمه التقليدي وتعليمه الرسمي في المرحلة الابتدائية، ثم سافر إلى مازونة التي كانت لا تزال تحافظ على بقايا أمجاد في الفقه المالكي، وبعد سنتين من الإقامة في مازونة قصد تونس والتحق بجامع الزيتونة. فكان له بتونس إضافة إلى الدراسة- نشاط جعوي حيث ترأس المجلس الإداري لـ "جمعية التلامذة الجزائريين الزيتونيين".

وإثر عودته إلى الجزائر سنة 1938م، ساهم في المجال الصحفي بتعيينه في منصب محرر في (جريدة الرشاد) لسان حال جمعية اتحاد الزوايا والطرق الصوفية. ثم عين إماما بمسجد وهران العتيق. وبعدها عين مفتيا في بجاية التي مكث فيها 8 سنوات كلها نشاط ثقافي وديني، حيث كان رئيسا شرفيا لفوج الكشافة الإسلامية الجزائرية، وبعدها عاد إلى مدينة الشلف ليتولى بها الإفتاء إلى ما بعد اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر 1954م.

منذ تأسيسه سنة 1963م، ثم انتدب لوزارة الثقافة بدائرة المعالم الأثرية بوزارة الشؤون الدينية ليقوم بإنجاز أبحاث تاريخية، وعمل كذلك عضوا في المكتب الوطني للدراسات التاريخية.

وفي سنة 1974 أشرف على زاوية والده 1954م، إثر وفاة أخوه الشيخ عبد البر (خليفة والده)، ومن هنا انصب همه على البحث والتأليف فكان كل همه وشغفه إقتناء كتب التراث من مخطوطات ورسائل وتقارير فقهية وأدبية وتشريعية وأصولية ولغوية وتاريخية.

أكثر على البحث والدراسة، وجمع الكتب والمخطوطات والرسائل والجرائد والمجلات، من مختلف المظان وسار في تحقيق الكتب والمخطوطات. .كما كان له نشاط كبير في ملتقيات الفكر الإسلامي.

من ذي الحجة 1412هـ الموافق لـ 6 جوان 1992م، ودفن بمقر زاويتهم، وقد ترك المهدي مجموعة هامة من الكتب: تحقيقا وتأريخا، والتراجم ورحلات، ومقالات وغيرها، جمعت مؤخرا (2013) وطبعت بالجزائر في ثمان مجلدات عن دار عالم المعرفة، بعناية الدكتور عبد الرحمان ذويب.

مصطفى بن حلوش 1932م:

ترجمة الرحالة:

هو مصطفى بن حلوش، من علماء مستغانم بالغرب الجزائري، وأحد رموز الحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد يوم 10 أكتوبر 1907 بمستغانم، كان أبوه من الإصلاحيين فسار على نهجه، وقد شارك في نادي الترقى بمناسبة التحضير لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نيابة عن أبيه فألقى خطبة بتلك المناسبة نيابة عن أبيه.

مستغانم إماما بالمسجد الكبير، كما عرف عنه تنقلاته الكثيرة خارج بلدته لتعريف الناس بالحركة، وقد أسهم كثيرا بمقالاته في الجرائد الإصلاحية العلمية منها والاجتماعية خصوصا بجريدة البصائر، ودام على تلك الحال حتى استقلت الجزائر فأصبح مفتشا في التعليم أيضا إلى أن تقاعد.

يساعد كثيرا الفنان البدوي "الشيخ حمادة"، فكلما استعصى الأمر على هذا الأخير في كتابة نص ما يطلب مساعدة الشيخ مصطفى بن حلوش، توفي الشيخ بن حلوش رحمه الله يوم 18 جويلية 1980م.

عدون سعيد شريقي 1932م :

ترجمة الرحالة

"ولد عام 1319هـ/1902م بمدينة القرارة، (ولاية غرداية)، وزوال تعليمه الأول بالقرارة، وتربى في حضان خاله أحمد بن الحاج سعيد جهلان بعد وفاة والده وانسداد الحياة بعده. تعلم التجارة مع خاله الذي سافر به إلى سريانه (ولاية باتنة) وهو العاشرة من عمره، وقضى هناك ثلاث سنوات دون أن يفصل عن الدراسة. وإثر قيام الحرب العالمية الأولى عاد إلى القرارة وانتظم بمدرسة الشيخ محمد بن الحاج إبراهيم قرقر "الطرابلسي" مع إتمامه للقرآن الكريم.

وفي عام 1915م عاد إلى مدينة سريانه ليتفرغ للعمل فقط، فمكث فيها أربعة سنين، ثم عاد في عام 1919م إلى القرارة، فانضم إلى مدرسة الشيخ الطرابلسي ثانية، واستظهر القرآن الكريم بعد سبعة أشهر من ذلك.

انخرط عام 1920م في هيئة "إيروان" التي تضم حفظة القرآن، وفي السنة نفسها دخل معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى طالبا، وبعد وفاة شيخه (الحاج عمر بن يحيى) سنة 1921م، شارك في جلسات متوالية لإصلاح التعليم رفقة الشيخ بيوض، فكانت تلك الجلسات منطلق النهضة العلمية المعاصرة بميزاب.

وفي 1925م أسس الشيخ إبراهيم بيوض مدرسة الشباب (معهد الحياة) فتولى الشيخ عدون نظارة المعهد والتدريس به من أول يوم. ومع بداية الأربعينيات تفرغ الشيخ بيوض لشؤون الأمة العامة، تاركا خلفه الشيخ عدون مديرا للمعهد، وظل الشيخ عدون على رأس إدارته إلى يوم وفاته سنة 2004م.

ومنذ ذلك الحين نب في المعهد نشاط تربوي وأدبي كبير، فأنشئت الجمعيات، وأصدرت المجلات، وتنافس الشباب في الشعر والأدب، والفصاحة والبلاغة، والنشاط الديني.

ومن بين أعمال الشيخ عدون أيضا، نشاطه في عالم الصحافة رفقة الشيخ أبي اليقظان، فكان نائبا له في كثير من المناسبات على جرائد مختلفة، خلفه عام 1930م في إدارة جريدة "المغرب"، ثم خلفه ثانية لمدة سنة كاملة عام 1936م حين كان يصدر جريدة "الأمة"، ولعل أهم ميزة يتميز بها الشيخ عدون، هي صبره والتزامه وحبه لعمله والدوام عليه بصدق وإخلاص، وهو ما تجسد في قيامه على دروس التفسير في معهده لمدة 45 سنة كاملة من (1935 إلى 1980)، وتعد آخر أعمال الشيخ عدون تأسيس جمعية التراث بالقرارة (غرداية) عام 1989م مع جماعة من تلامذته، تسعى للحفاظ على التراث الفكري والحضاري لميزاب وإحيائه، وتحقيقه ونشر كنوزه، فكان رئيسا لها إلى يوم وفاته، توفي الشيخ عدون يوم الثلاثاء 19 رمضان 1425هـ 2 نوفمبر 2004م وعمره 102 سنة، وشيعت جنازته صبيحة الأربعاء 20 رمضان 1425هـ / 03 نوفمبر 2004م.

محمد السعيد الزاهري 1933م:

ترجمة الرحالة



البشير بن علي بن ناجي، ولد عام 1899م ببلدة (ليانة) جنوب بسكرة، كانت أسرته من أهل العلم فتربى في حجر جده وأعمامه، وكان أول ما بدأ به حفظ القرآن الكريم وتلقى بعض المعارف الأولى في العلوم الدينية واللغوية، بعدها التحق بدروس الإمام عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة، وبعد سنة وشهرين انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، وخلال أربعة أعوام،

نال شهادة التطويع. ثم عاد إلى الجزائر سنة 1925م، فاستقر بالجزائر العاصمة.

وانضم إلى جماعة الإصلاح التي كانت في تلك الفترة في بداية عهدها تعمل على تأسيس فكرة الجماعة الإصلاحية، فانظم فيها عنصرا فاعلا في كل ما يمت إلى الإصلاح بصلة كالوعظ والإرشاد والتربية والتعليم، فتعددت جهوده واختلف حصاده، إذا كان داعية مصلحا، ومعلما مربيا وصحفيًا حرا وأديبا ملتزما، وقد ناضل من أجل فكرة الإصلاح، فكان أحد المسببين في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، وبعد تأسيس هذه الجمعية كلف بتمثيلها بمدينتي (تلمسان ووهران) في الغرب الجزائري، وفي أواخر الثلاثينات من القرن العشرين أصبح يقلل من نشاطه الدعوي في العمل الإصلاحي، فحاض في جناحها السياسي، ثم سرعان ما اشتغل في الحركة الوطنية وأصبح بارزا في ذلك إلى أن أصدر سنة 1947م جريدته "المغرب العربي" التي كانت تنصر لحزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وبدأ شيئا فشيئا يعادي الحركة الإصلاحية، ولما كان مناصرا لحزب انتصار الحريات المصالية، مبالغا في معاداته ومعارضته لحزب جبهة التحرير الوطني التي كانت تقود حزب التحرير أدى

به ذلك إلى إصدار حكم بالإعدام ضده، فنفذ عليه الحكم أمام منزله بالعاصمة سنة 1956م.

و للزاهري قلم سيال متدفق، يهفو إلى الكتابة ويلاحظ عليه ذلك من انطباعه غير الممل، عندما يتناول موضوعا ما من الموضوعات، ولقد ساهم بالصحافة منذ صغره، حين كان تلميذا بتونس، فكانت هذه التجربة مفيدة له حيث أدخلته بسرعة في عالم الصحافة بالجزائر، وتأكيدا على ذلك أصدر سنة 1925م جريدته الأولى ب الجزائر. إلا أنه هيا لها أسباب الفشل بحدة توجهها، فقطع عليه الاستعمار ذلك بعد صدور ثلاثة أعداد منها.

إلا أن الزاهري لم يكن من ذوي الصبر على الكتابة، بل ساهم في بلورة أفكاره وآرائه في بعض الصحف الوطنية والإصلاحية الأخرى، كما أصبح سنة 1933م يرأس مع الشيخ الطيب العقبي تحرير جريدتي (السنة والشريعة) وهاتان الجريدتان من أول ما أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من صحف، إضافة إلى أنه أصدر جملة من الجرائد الخاصة : (البرق 1927)، (الوفاق 1983) و(المغرب العربي 1947) (عصى موسى 1950)

والزاهري أديب خاص يملك أسلوب خاص به، حاد اللغة صارم في صراعه، يحسن القول شعرا ونثرا، واقعي المنهج من أهم كتبه "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" صدر عام 1934 بدمشق وهو الكتاب الذي أبان عن أسلوب راق في الكتابة الأدبية والتوجيه الرصين، حتى أخذ حقه من التعاليق في العالم العربي.

عبد اللطيف القنطري 1934م:

ترجمة الرحالة:

علم من أعلام الفكر والأدب في الجزائر، وعضو بارز في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولد في 8 جوان 1902م بقرية القنطرة ولاية باتنة، تربى يتيما بحضانة والدته بعد وفاة والده، وهو ذوا ثلاث سنوات. وقد حرصت والدته على تعليمه، فأرسلته إلى الكتاب القريب منهم، لتعلم مبادئ القراءة وحفظ القرآن، ومنذ عام 1908م كان منشغل بالعب وخدمة البيت أرسلته والدته خارج بلدته ليتفرغ للعلم، فاختلف إلى معظم زوايا منطقة بسكرة، فكانت آخرها زاوية الشيخ علي بن عمر المشهورة في تلك النواحي نحو سنتي (1919-1920م) وتقليدا بأبناء منطقتة رحل إلى جامع الزيتونة (تونس) وبعد 7 سنوات متوالية من 1922-1929م حصل على شهادة التطويع.

وعند عودته للجزائر لبي نداء ابن باديس فانظم إلى معلمي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعُين ببلدة "القرارم" ولاية ميله مدرسا وخطيبا في جامع القرارم الحر منذ شهر نوفمبر 1931، وبقي في التعليم والنشاط لجمعية العلماء إلى أن قامت ثورة التحرير 1954م وبعد الاستقلال عاد إلى التعليم النظامي الحكومي، فعمل سنتين في ثانوية "حسيبة بن بو علي للإناث" في القبة العاصمة ثم ثانوية الإدريسي، وسنة 1971 تقاعد.

الدينية الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، كان يتميز بشخصية قوية، وقد أزعج بهذه الشخصية الإدارة الاستعمارية فتعرض لعدة اعتقالات، ومع ذلك ظل قويا، صاحب إصرار وموقف وجرأة نادرة إلى يوم وفاته مما عرضه إلى ضغوطات كثيرة من طرف النظام الجزائري. فقد اعتقلته السلطات الجزائرية بعد تجمع الجامعة المركزية في 1982م وتوقيعه لبيان رفقة الشيخ أحمد سحنون وعباسي مدني حول تلك الأحداث، وتمت محاكمته، فحكم عليه فرض الإقامة الجبرية. كما يعد الأب الروحي للجبهة

الإسلامية للإنقاذ ذات التوجه الإسلامي حيث كان متذمرا من النظام السائد آنذاك، إلا أنه كان ضد العمل المسلح. توفي الشيخ السلطاني في أبريل 1984م وهو تحت الإقامة الجبرية ودفن بالعاصمة.

الفضيل الورتلاني 1934م:

ترجمة الرحالة:



هو الفضيل بن محمد حسين الورتلاني ولد ببلدة بني ورتلاني (ولاية سطيف) من شرق الجزائر، في 2 جوان 1900م بأسرة محافظة تهتم بالعلم والدين، حفظ القرآن الكريم، وزاول دراسته الابتدائية في العلوم الشرعية والعربية، وسنة 1924م انتقل إلى قسنطينة، حيث درس على يد

الشيخ ابن باديس، حتى صار في سنة 1932م مساعدا له في التدريس، ومن ثم أصبح الورتلاني من أهم رجال الإصلاح في عصره، فقد كان يتحمل الأعباء الكبيرة في سبيل الدعوة والإصلاح، بالدرس والوعظ والكتابة في الجرائد والصحف مساهما في جريدة الشهاب بالقلم والسعي وراء الاشتراك والترويج لها، وكان مرافقا لابن باديس في كل تحركاته عبر الوطن.

ومنذ سنة 1940م غير وجهته نحو القاهرة حيث أثر الانتساب إلى الأزهر، زمن خلالها حصل على شهادته العالمية في "كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية" فزاد من حدة جهاده القومي والوطني في سبيل خدمة القضية الجزائرية، وقضايا المسلمين عموما، ومن أعماله بالقاهرة تأسيس "اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر" سنة 1942م، و"جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا" سنة 1944م كما أسس مكتب "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" في القاهرة 1948م، الذي استقبل فيه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة 1952م، وقد أثرت فيه موجة الإخوان المسلمين حتى صار عضوا في تنظيمها، إلى درجة أنه اتهم بالمشاركة في محاولة انقلابية في اليمن 1948م فقبض

عليه هناك ثم أفرج عنه بعفو. أما خلال قيام ثورة التحرير الجزائرية 1954م فقد أعلن مساندة لها، وعمل في صفوف جبهة التحرير الوطني، في وفدها الخارجي بالقاهرة. في 12 مارس 1959م في احد مستشفيات تركيا بعد معاناة من مرض عضال.

مبارك الميلي 1936م:

ترجمة الرحالة



ولد سنة 1898م في دوار أولاد مبارك بالرامان ضواحي ميله، نشأ يتيم الأبوين، فكفله جده وأعمامه بدأ تعليمه بالميلية وهناك حفظ القرآن الكريم، وزاول الدروس العلمية الابتدائية وبعدها التحق بالشيخ ابن باديس بقسنطينة فأخذ منه الأفكار الإصلاحية، وبعد

تدرجه العلمي التحق بجامع الزيتونة (تونس) متحصلا بعد سنوات الاجتهاد على شهادة التطويح سنة 1924م، رجع حينها إلى وطنه، وفي هذه السنة كانت فكرة تجمع العلماء قد بدرت عند شيوخ الإصلاح فانظم إلى الفكرة، وشارك في العمل الصحفي بجريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" وبدأ عمله الإصلاحي مبكرا ففي سنة 1926م انتقل إلى مدينة الأغواط(الصحراء الجزائرية) بدعوة من أهلها. فقضى هناك 7سنوات أسس فيها "مدرسة الشبيبة"، كما أسس عدة جمعيات خيرية ورياضية، أبرزها "الجمعية الخيرية لإسعاف الفقراء والمساكين والأيتام"، فكان مجتهدا قوي العزيمة وشديدا على البدع فأصلح وربى جيلا.

وكان من أبرز مؤسسي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" سنة 1931م، فشغل منصب الأمين المالي فيها، وبعد سنة 1933م غادر الأغواط ورجع إلى ميله فأنشأ فيها جامعا كان خطيبا وواعظا ومرشدا فيه، كما أشرف على عدة نوادي ومدارس تعليمية، أسند له رئاسة تحرير جريدة "البصائر" الأسبوعية بعد الشيخ الطيب العقبي، وفي سنة 1940م لما توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، عُين خلفا له في إدارة شؤون "الجامع الأخضر" بقسنطينة والإشراف على الدروس فيه.

لازم الشيخ مبارك مرض مزمن "داء السكري"، الذي قضى عليه بعد انهيار صحته في 9 فيفري 1945 ودفن في مقبرة ميله، ومن بين ما خلف من آثار: كتابه القيم "تاريخ الجزائر القديم والحديث" الذي ألفه في فترة حرجة حيث كان المستعمر يظن أنه قضى على الهوية الوطنية. وكتاب "رسالة الشرك ومظاهره" والكتاب عبارة عن مقالات كتبها في الجرائد خصوصا "البصائر"، وهي دعوة صريحة في محاجاته للوضع المزري الذي عاشته الجزائر تحت ظل الانحرافات العقيدية.

فرحات بن الدراجي 1936م:

ترجمة الرحالة:

أحد أبرز رجال الإصلاح في الجزائر، ولد سنة 1906م ببلدة (ليشانة) بسكرة، نشأ على مبادئ العلم وحفظ القرآن الكريم، وفي سنة 1924م سافر إلى تونس لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة، ليتخرج سنة 1931م بشهادة التطويع، ثم بعدها عاد إلى وطنه، وحينها صادف تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فانخرط في صفوفها، وعين معلم مدرسة في مدينة سيق ولاية بسكرة خلفا للشيخ العربي التبسي، وسنة 1937م انتخب نائبا للكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ومن فرط ما كان يحرص على الاستعمار فقد أودع السجن بتهمة المساس بأمن الدولة الفرنسية، ثم أطلق سراحه مع نفيه من مدينة الجزائر إلى بسكرة للإقامة الجبرية فيها. كما كانت له نشاطات صحفية حيث كان يكتب كثيرا، و يعالج قضايا مهمة ثقافية وسياسية وأدبية واجتماعية في صحف و جرائد الإصلاح كالشهاب، والسنة والشريعة والصراف والبصائر.

وقد كان يوصف بالموسوعية لتنوع ثقافته كما تميز بجرأته الحادة، وأسلوبه المحكم في التحليل والنقد، في آخر أيامه تعرض الشيخ الدراجي إلى مرض فتاك أودي به يوم 13 ماي 1951م رحمه الله.

الرحالة حمزة بوكوشة 1937م:

ترجمة الرحالة:

هو شنوف حمزة بن البشير ابن أحمد بن بوكوشة شنوف بن علي بن مهير، واحد من أهم رجال الإصلاح في الجزائر، ولد في أكتوبر 1906م بوادي سوف لأب تاجر بمدينة بسكرة، مسجدي التكوين، حفظ القرآن الكريم صغيرا مع مبادئ علوم العربية، رحل إلى الزيتونة في 1924م لمواصلة تعليمه العالي هناك، فزادته تونس من نفحات صحفها ونشاطها الفكري زيادة على ما كان يصل من صحف إصلاحية جزائرية حتى صار له من التميز الفكري ما سمح له بالركوب في موجة الحركة الإصلاحية الجزائرية من بدايتها عام 1931م، فكان شغله التربوية والتعليم، وغالبا ما كان ذلك بمنطقة القبائل، كما أوفد مع بعثة الجمعية بفرنسا من أجل تأسيس النوادي التابعة للحركة الإصلاحية.

عرف عن بوكوشة اشتغاله بالتجارة، والصحافة التي كان يشارك فيها بمقالاته الأدبية والسياسية والفكرية بجرائد الإصلاحيين وخاصة جريدة البصائر التي أتحفها بباقة من المقالات، كما يعرف عن بوكوشة أنه شاعر مبدع له قصائد مبنوثة بنفس الجرائد المذكورة.

اعتقل سنين أثناء الحرب التحريرية الجزائرية، وبعد الاستقلال اشتغل متصرفا مدنيا بوزارة الأوقاف، ثم أستاذ ثانويا بمدارس العاصمة حتى أحيل على التقاعد. ثم بعد ذلك عمل مستشارا في المجلس الأعلى للقضاء بالجزائر (العاصمة) ومن أعماله الخاصة فتحه مكتب محاماة من عام 1980 إلى 1988م، فهو متحصل على ليسانس حقوق سنة 1971م من جامعة الجزائر حين كان يزاول مهنة التعليم.

توفي الرحالة بوكوشة يوم 18 نوفمبر 1994م.

الرحالة عبد الحفيظ الجنان 1938م:

ترجمة الحالة:

هو الشيخ عبد الحفيظ صويلح الجنان، من رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد يوم 16 ماي 1901م في واد سكان ولاية ميلة، قسنطينة وبعدها التحق بالإمام ابن باديس فلازمه سنوات، وكان قدوة للمتعلمين، ومن ثم اختاره الشيخ بن باديس معلما في أحد فروع مدرسة التربية والتعليم. وزاول حياته معلما ومديرا للمدارس الإصلاحية في شرق البلاد وغربها، وكان مقدما عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ويشهد له كل علماء الإصلاح في عصره بالتفوق، حتى أن الإبراهيمي أجازته بشهادة كتابية سنة 1962م ومنها قوله "و أعطيته هذه الشهادة بناء على خبرتي الشخصية، وأن درجته في التعليم تفوق درجة التحصيل من جامع الزيتونة".

وبعد الاستقلال شغل إماما في أحد مساجد قسنطينة، وبعدها بسنة توفي الشيخ الجنان يوم 8 أوت 1963م.

أحمد حماني 1938م:

ترجمة الرحالة:

هو العلامّة المصلح الشيخ أحمد بن محمد حماني، ولد يوم 6 سبتمبر 1915م بقرية أزيار ضواحي العنصر دائرة الميلية ولاية جيجل، قام والده بتغيير تاريخ الميلاد إلى سنة 1920م حتى يكمل دراسته قبل أن تدرّكه الخدمة العسكرية.

كان يتميز بحماس زائد في طلبه للعلم وتصلبه للإدارة الاستعمارية والطرق الصوفية، أخذ العلم الابتدائي بقسنطينة عن الإمام عبد الحميد بن باديس، وفي سنة 1934م ارتحل إلى تونس ليتواجد في زمرة طلبة الزيتونة، بعد 10 سنوات عاد إلى الجزائر بثلاثة شهادات علمية، فقد حصل على الأهلية في 1936م، وعلى شهادة التحصيل في 1940م، وعلى شهادة العالمية في سنة 1943م.

بعد عودته إلى الجزائر في 30 أبريل 1944م اشتغل في التربية والتعليم، ثم قفز إلى مدير في نفس المجال، ولا زال في التربية والتعليم إلى غاية اندلاع الحرب التحريرية، فكان جنديا يعمل في سر تحت غطاء التعليم إلى يوم ألقى عليه القبض في 11 أوت 1957م بالعاصمة، ومن ثم قضى فترة سجنه مع الأعمال الشاقة بالسجن المركزي بتازولت "المبيس" -باتنة-، حيث بقي هناك إلى يوم 4 أبريل 1962م.

وبعد الاستقلال عمل مفتشا عاما للتعليم العربي، إلى سنة 1963م، فلما أسس معهد الدراسة العربية بجامعة الجزائر سمي أستاذا به، وقضى في الجامعة 10 سنوات كاملة من 1962 إلى 1972م، وفي سنة 1972م عيّن رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى، فكانت مهامه متعددة الجوانب تشهد له مساهمته في تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقد سنويا في الجزائر رفقة المرحوم مولود قاسم نايت بالقاسم.

وقد كان الشيخ حماني ولمدة طويلة مرجعا دينيا تؤخذ عنه الفتوة في كافة أرجاء الوطن، توفي الشيخ أحمد حماني في 29 جوان 1998م.

الخفناوي هالي 1948م:

ترجمة الرحالة:

الخفناوي هالي أديب وشاعر ومربي. ولد ب"قمار" ولاية وادي سوف عام 1911م، واكب أطوار الدراسة التقليدية بمراحلها انتهاء بجامع الزيتونة، ثم عاد ينشط بالحركة الإصلاحية مستقرا بمسقط رأسه.

وبعد ذلك عين من طرف (الجمعية) أمين سر لجنة التعليم العليا بقسنطينة، ثم انتقل إلى الجزائر (العاصمة) يزاول كل مهام يتعلق بالتدريس والتهديب والدعوة. ثم أشرف على معهد عبد الحميد ابن باديس فترة من الزمن.

اعتقل في أواخر 1956م وقضى في السجن مدة 22 شهرا قضاها في عدة معتقلات.

وبعد الاستقلال عين مفتشا للتعليم الابتدائي والمتوسط، ثم تقلد منصب مدير في وزارة الأوقاف، لم يتوقف حفناوي عن كتابة الشعر إلى غاية وفاته التي كانت مؤلمة حيث تعرض لحادث مرور أتى على حياته في 17 جانفي 1965م.

الصادق حماني 1948م:

ترجمة الرحالة:

هو الشيخ صادق بن رابح حماني، ولد بدوار (تمنجر) بلدية العنصر ضواحي الميلية (ولاية جيجل) في شهر جوان 1916م، بدأ تكوينه العلمي بمسقط رأسه لدى شيوخ المنطقة وهناك تم حفظ المصحف الشريف. وفي عام 1931م التحق بقسنطينة ولازم الشيخ ابن باديس بالجامع الأخضر.

رحل إلى تونس عام 1934م للالتحاق بجامعة الزيتونة، وبعد تحصيل مشرف عاد الشيخ الصادق إلى الجزائر وبدأ فيها العمل لصالح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة أخيه الشيخ أحمد حماني وكان ذلك عام 1940م. وفي عام 1942م جند عنوة لصالح فرنسا في حربها العالمية الثانية، بينما فر أخوه.

لم يتفرغ الشيخ للجمعية إلا في عام 1945م بعد انتهاء الحرب. فعُيّن مدير مدرسة بالميلية . وفي عام 1946م انتقل إلى قسنطينة لإدارة (مدير) مدرسة التربية والتعليم.

وبقي الشيخ صادق على دأبه معلما ومديرا ومربيا إلى قيام ثورة التحرير الجزائرية فانخرط فيها وبلى فيها البلاء الحسن.

وواصل بعد استقلال الجزائر مساره التربوي والتعليمي بين أستاذه مدير ومفتش عام، وفي أواخر شهر فيفري 1983م أُصيب بمرض عضال لم ينفع معه الطب ولا الدواء وعلى إثره فارق الحياة بعد مسيرة عطاء.

أحمد بوزيد قصبية 1951م :

ترجمة الرحالة:

هو أحمد بن أبي زيد قصبية، أحد أعلام الحركة الإصلاحية البارزين في الجزائر، ولد بمدينة الأغواط عام 1919م، وقد تكون تلقائياً عند علماء حركة الإصلاح بفضل شيخها السعيد الزاهري ومبارك الميلي حين توأجدهما بالأغواط، كما تكون بالمدرسة الفرنسية. فهو متقن للغتين (العربية والفرنسية) وقد اختار ضمن عدة اقتراحات أن يسافر إلى تونس ليدرس بجامع الزيتونة، فكان له ما أراد وعمره لا يتجاوز 14 سنة، أي سنة 1933م.

بدأ نشاطه الإصلاحي بتونس سنة 1936م، فكان كاتباً عاماً لجمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين، حيث كانت لها صلة وثيقة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعند عودته إلى الأغواط عام 1937م أسس مع جملة من الإخوان فوجاً كشفياً باسم (فوج الرجاء) فكان الشيخ قصبية المرشد المحلي للفوج.

وكانت الشيخ قصبية رابطة عزيزة بالشيخ الإبراهيمي حين كان هذا الأخير منفياً بمدينة أفلوا (1940-1942)، فكان دائم التواصل معه، مما وطد العلاقة بينهما، حتى أن الإبراهيمي نصبه سنة 1946م كاتباً مركزياً للجمعية، وحين غادر الإبراهيمي الجزائر، عاد الشيخ قصبية إلى الأغواط ليشغل بالتعليم والتجارة. وبعد الاستقلال تولى الشيخ إدارة الشؤون الدينية في ولاية الأغواط، كما تولى إدارة المعهد الإسلامي بـ الأغواط بين سنوات 1964 و1979م، حتى أحيل على التقاعد عام 1980م توفي الشيخ أحمد قصبية يوم 4 جويلية 1994م⁽¹⁾.

(1) ينظر: جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية، جمع وإعداد وضبط وتحقيق وتقديم، عيسى بخيتي، ج02، رحلات إصلاحية.

قائمة

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع)

❖ المصادر:

1. ابن باديس: الآثار، ج4، جمع وتقديم د. عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982.
2. أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح، محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998.
3. أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج3.
4. إسماعيل مامي: جناح الصفر، ع574، الأربعاء 12 شوال 1346 الموافق لـ 04 أبريل 1928م.
5. إسماعيل مامي: جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، جريدة النجاح، ع143، 1924/01/25.
6. إسماعيل مامي: جولة نائبا بالوطن القبائلي، جريدة النجاح، العدد 181، الجمعة 7 نوفمبر 1924. الموافق لـ 8 ربيع الثاني 1343هـ.
7. البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي: ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
8. جريدة البصائر: السنة الثالثة، العدد 126، في 15 جمادى الثانية 1357، 12 أوت 1938م.
9. جريدة البصائر: سلسلة: سنة2.6، عدد 250، في 05 ربيع الثاني 1373هـ/26 فيفري 1953.
10. جريدة البصائر: سلسلة: سنة2.6، عدد 253، في 03 جمادى الأولى 1373هـ/08 جانفي 1954.
11. جريدة البصائر: سلسلة: سنة2.6، عدد 260، في 22 جمادى الثانية 1373هـ/26 فيفري 1954.
12. جريدة البصائر: سلسلة 02، سنة 06، العدد 262، 06 رجب، 1373، 12 مارس 1954م.

13. جريدة البصائر: سلسلة: 2 سنة.8، عدد 336، في 27 صفر 1375/ 14 أكتوبر 1955.
14. جريدة البصائر: سلسلة:1، سنة 3، العدد 128، الصادر في 29 جمادى الثانية 1357هـ /26 أوت 1938.
15. جريدة البصائر: سلسلة:1، سنة:3، عدد: 125 الصادر في 1 جمادى الثانية 1357هـ/29 جويلية 1938م.
16. جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة:2، عدد 31 في 02 جمادى الثانية 1367 الموافق لـ 12 أبريل 1948.
17. جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة:2، عدد 31 في 02 جمادى الثانية 1367 الموافق لـ 12 أبريل 1948.
18. جريدة البصائر: سلسلة، 2، سنة:6، عدد 262 في 06 رجب 1373 الموافق لـ 11 مارس 1954.
19. جريدة البصائر، السلسلة الثانية، س7، العدد 285، 20 محرم 1374 هـ الموافق لـ 17/9/1954م.
20. جريدة البصائر، سلسلة:1، سنة 3، العدد 129، الصادر في 07 رجب 1357هـ /02 سبتمبر 1938.
21. حديث متجول النجاح.. تلمسان الجميلة جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3853، يوم السبت 30 محرم 1370 هـ، الموافق لـ 11 نوفمبر 1950م.
22. حديث متجول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال...، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3895 يوم السبت 7 رجب 1370 الموافق لـ 14 أبريل 1951.
23. حديث متجول النجاح.. قاضيان في البيض، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3864، يوم 10 ربيع الأول 1370هـ الموافق لـ 20 ديسمبر 1950م.
24. حديث متجول النجاح: في عروس العواصم جزائر بني مزغنة، جريدة النجاح، السنة، 3 العدد 3904، يوم 9 شعبان، 1370هـ، الموافق لـ 16ماي 1951م

25. الحسن الطولقي: سوانح متجول، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 51، مستغانم يوم 1 ربيع الأول 1357هـ الموافق لـ 1 ماي 1938م.
26. الحسين بن محمد الورثلاني، نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، نشر محمد ابن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008.
27. خطاب أحمد الملياني: رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الزريوي، جريدة الرشاد، ع47، الجزائر، 1939/07/17
28. الرحلة القسنطينية: العدد 781، الاثنين 02 سبتمبر 1929، الموافق لـ 29 ربيع الأول 1348هـ.
29. سليمان الصيد: رحلة مدرسية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، العدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953)
30. شهاب: ج11، م11، ذي القعدة، 1354/ فيفري 1936م.
31. عبد الرحمان الحسيني: تأملات مسافر، مجلة الشهاب 108، السنة الثالثة، (الاثنين 5 صفر 1346هـ / 04-08-1927)
32. عبد الله المنازل: "منازل بسكرة" مجلة الشهاب، العدد 30، السنة الأولى، (الخميس 28 ذو القعدة 1344هـ / 10/02/1926).
33. عبد الحفيظ الهاشمي: رحلة إلى المغرب والأندلس، جريدة النجاح، ع1370، 1932/10/19.
34. علي مرحوم: حديث متجول: جريدة النجاح، السنة 30، ع3860، يوم الأربعاء، 1950/12/06.
35. علي مرحوم: حديث متجول: جريدة النجاح، تلمسان الجميلة، ع3853.
36. علي مرحوم، حديث المتجول — الجولة الثانية — البصائر العدد 117، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، 11 ربيع الثاني 1357، الموافق لـ 10 جوان 1938.
37. عمر بن قدور: سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق العدد 38 الجمعة 28 ذي الحجة 1331 الموافق 1973/11/28.
38. الفضيل الورثلاني: رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، الجزء السابع المجلد العاشر، (غرة ربيع الأول 1353هـ/ جوان 1934).

39. قويدر بن مناد: الجولان وفوائده، جريدة البلاغ الجزائري، السنة 2، العدد 29، الجمعة 21 ذي القعدة 1346هـ، الموافق لـ 1928.
40. مامي إسماعيل: على جناح السفر، جريدة النجاح، سنة 30، العدد 592، الأربعاء 1950/05/06م
41. مبارك الملي: تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرتها"، جريدة البصائر، العدد 30، السلسلة الأولى، السنة الأولى، الجمعة 12 جماد الأولى 1355، الموافق لـ 31 جويلية 1932.
42. محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، الشركة والوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 4، 1985.
43. محمد العلمي: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 768، الاثنين 29 جويلية 1929 الموافق لـ 21 صفر 1348هـ
44. محمد العلمي: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 770، الجمعة 2 أوت 1929 – الموافق لـ 25 صفر 1348هـ.
45. محمد العلمي: الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، ع 768، الاثنين 29 جويلية 1929، الموافق لـ 21 صفر 1348هـ.
46. محمد بن إدريس الشافعي: رحلة الشافعي، نشر محي الدين الخطيب، (د.ط)، المطبعة السلفية بالقاهرة، سنة 1350هـ.
47. محمد صالح رمضان: سوائح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2004.
- ❖ المعاجم والقواميس:
48. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، ج 3 (مادة رحل)، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة.
49. أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السلام محمد هارون، ج 2، ط 2، (مادة رحل)، دار الفكر، سوريا، 1979.

50. إميل يعقوب، سيام حركة، مي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي- إنجليزي- فرنسي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1997.
51. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي: ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005.
- ❖ المراجع:
52. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشّادادي، ط1، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
53. أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982.
54. إنجيل بطرس: "الرحلات في الأدب الإنجليزي"، مجلة الهلال، ع7، السنة 83، يوليو، 1975.
55. أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1977.
56. جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية، جمع وإعداد وضبط وتحقيق وتقديم، عيسى بخيتي، ج02، رحلات إصلاحية.
57. جميل شاكور: سمير المرزوقي: مدخل إلى نظرية القصة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
58. حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001.
59. الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ط2، منشورات عكاظ، المغرب، 2002.
60. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990.
61. حسين نصار: أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1991.
62. حميد لحميدان: بنية السردية من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1993.

63. سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
64. سعيد يقطين: قال الراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997.
65. سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية (دراسة ثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984.
66. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية النشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
67. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
68. طه عبد المقصود أبو عيبة: الحضارة الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ج1.
69. عبد الرحمان عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، منشورات المجلة التاريخية التونسية، ط1، 1982.
70. عبد الرحيم المودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي أبو ظبي، ط1، 2006.
71. عبد الرحيم المودن: الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
72. عبد الله الركبي: تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
73. عواد علي: تقنيات الزمن في السرد القصصي، من زمن التخيل إلى زمن الخطاب، الأدبي المعاصر، بغداد، ع44، 1992.
74. غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط6، 2006.
75. قادة بوجلال: كل الناس كاملون، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 47، الجزائر يوم الأربعاء 22 ذي الحجة 1356هـ، الموافق لـ 2 مارس 1938.

❖ المجالات:

76. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969.

77. محمد سويرتي: النقد البنيوي والنص الروائي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991، ج2.
78. محمد ماكّامات: "أثر الرحالين في التقدم العلمي والحضاري"، مجلة فكر ونقد، ع87، ، السنة التاسعة، مارس 2007.
79. نوال الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2001.
80. ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986.

❖ الرسائل والأطروحات:

81. إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، إشراف: الدكتور عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2006/2005.
82. سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: الشريف مربيبي جامعة الجزائر، 2006-2007.

❖ المواقع الإلكترونية:

83. Rcit de Voyage, Relation Reportage : www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html يوم 16 أبريل 2018 على الساعة 09:00 صباحا



فهرس المحتويات

شكر و عرفان

مقدمة أ-د

مدخل أدب الرحلة

- 1- حول مفهوم الرحلة 05
- 1-1 التعريف اللغوي 05
- 2-1 التعريف الإصطلاحي 06
- 2- خصائص الكتابة الرحلية 07
- 3- تعريف الرحلة 07
- 4- تعريف أدب الرحلة 09
- 5- أنواع الرحلات 10
- 5-1 الرحلات الدينية 10
- 5-2 الرحلات العلمية 10
- 5-3 الرحلات التجارية 11
- 5-4 الرحلات السياحية 12
- 5-5 الرحلات الرسمية 12

الفصل الأول

النص في الرحلة الجزائرية الحديثة

- 1- النص الرحلي في العصر العثماني 15
- 2- النص الرحلي والصحافة 20
- 3- الحركة الإصلاحية وأدب الرحلات 21
- 4- صورة المجتمع 22

- 22..... 1-4 صور المكان/ الجغرافيا و العمران
- 23..... 2-4 جغرافية المكان وفضاء المدينة
- 28..... 3-4 الجانب الحضاري في المدن
- 32..... 5- بنىة المجتمع في النص الرحلي
- 34..... 1-5 المكان المقدس "المساجد"
- 37..... 2-5- الزوايا

الفصل الثاني

الخطاب في الرحلة الجزائرية الحديثة

- 45..... 1- السرد
- 46..... 2- الوصف
- 49..... - في الرحلة الداخلية
- 52..... - في الرحلة خارج الوطن
- 67..... 3- البنية السردية في الرحلة الجزائرية الحديثة
- 67..... 1-3 السرد
- 68..... 4- البنية الزمنية
- 69..... 1-4 الاسترجاع
- 70..... 2-4 الاستباق
- 72..... 3-4 التسريع
- 72..... 4-4 الحذف (القفز)
- 73..... 5-4 الوقفة/ الاستراحة
- 74..... 6-4 المشهد
- 77..... الخاتمة

الملحق 80

قائمة المصادر والمراجع 108

فهرس المحتويات

ملخص الدراسة

ملخص

الرحلة سلوك إنساني وسعي دائم لتحقيق غايات معينة تختلف من بيئة لأخرى ،ومن مرتحل لأخر لتشبع لديه فضول الاستكشاف مما يجعل منها حكاية يريد من خلالها مشاركة الغير بها .

وجاء عنوان مذكرتي ب "النص والخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة (1830م-1962م) رحلات جمعية العلماء المسلمين أنموذجا " وبدأت مذكرتي بمدخل كان عنوانه "مدخل إلى أدب الرحلات" تناولت فيه مفهوم الرحلة وأنواعها وخصائصها وبواعثها ثم قسمتها إلى فصلين الفصل الأول جاء بعنوان "النص في الرحلات الجزائرية الحديثة" وتطرق في هذا الفصل إلى النص الرحلي في العصر العثماني ،النص الرحلي والصحافة ،الحركة الإصلاحية و أدب الرحلات ،و بنية المجتمع في النص الرحلي ،أما الفصل الثاني فجاء بعنوان "الخطاب في الرحلات الجزائرية الحديثة" وتعرضت في هذا الفصل إلى السرد و الوصف والبنية الزمنية

إن ما عرفته الرحلة الجزائرية الحديثة هو الزخم الكبير من النصوص المترامنة في بطون الصحف و المجالات وتكمن أهميتها في أنها واكبت فترة زمنية طويلة وحرجة من تاريخ الجزائر وكشفت عن تاريخ الجزائر فنيا واجتماعيا وثقافيا وصورت المجتمع من الداخل.

الكلمات المفتاحية (الرحلة ، النص ،الخطاب ،السرد ،الوصف)

Abstract

The journey is a humanistic behavior and a constant pursuit of certain ends that vary from one environment to another and from a traveller to another to satiate his curiosity to explore more making it a tale through which the traveller wants to share his experience with others. The title of my dissertation is "Text and Discourse in the Modern Algerian Journeys (1830 AD_1962M) Trips of the Association of Muslim Scholars as a Model". I began my dissertation with an introduction entitled "Introduction to the Literature of the trip," which dealt with the concept of the journey and types, characteristics and motives. Then, the dissertation was divided into two chapters. Chapter I is entitled «Modern Algerian Journeys.» In this chapter, I discussed the text in the literature of journeys during the Ottoman era, then the text of the journey and the press reform movement. After that, I dealt with the literature of journeys and the structure of the community as depicted in the text of journeys. The second chapter, entitled "Discourse in Modern Algerian Journeys" has been devoted to the analysis of narration , description and time structure. Modern Algerian journeys (1830-1962) have known great momentum of the simultaneous texts in newspapers and magazines and some libraries across the country. We found that the importance of these texts is that they accompanied a long and critical period of the history of Algeria. It also accompanied different generations and spectra and fluctuating linguistic levels and revealed the history of the era artistically, socially and culturally. It reflected to us the true image of the community from within.

Key words: (trip, text, speech, narrative, description)